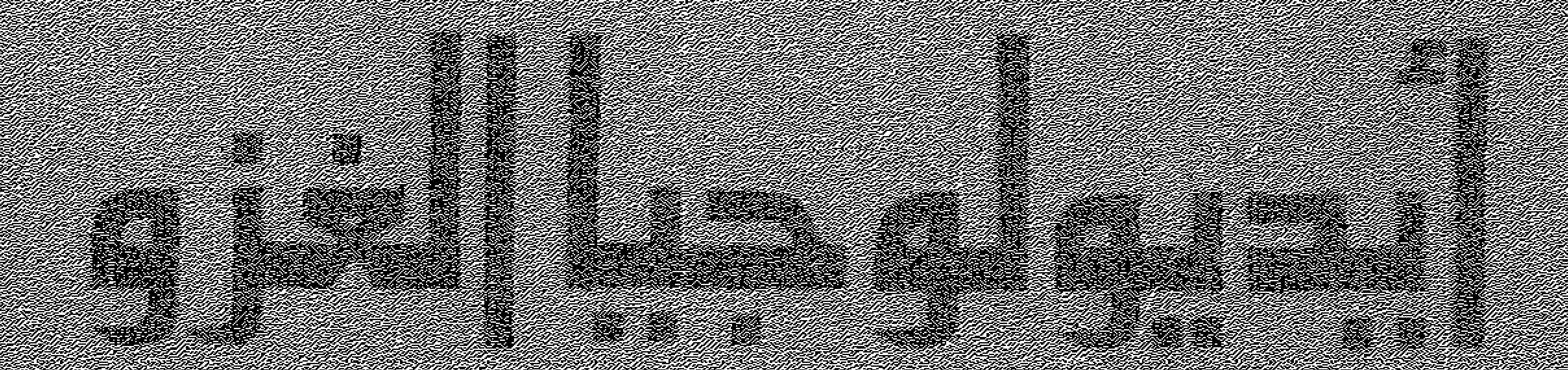


المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

تاريخ الأيديولوجيات



أيديولوجيا الغزو

بإشراف

فرنسوا شاتليه

ترجمة

جوزف عبد الله



أيديولوجيا الغزو

تاريخ الأيديولوجيّات

أيديولوجيا الغزو

بإشراف

فرنسوا شاتليه

ترجمة

جوزف عبد الله



الطبعة الاولى

١٤٠٣ هـ — ١٩٨٤ م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء — شارع اميل اده — بناية سلام

هاتف: ٨٠٢٤٠٧ — ٨٠٢٤٢٨ ص . ب ١١٣/٦٣١١ بيروت — لبنان

I ـ المتوحشون والمتحضرون في القرن الثامن عشر

بقلم ايلين كلاستر

من سمات عصر الانوار عودة الاهتمام بالمتوحشين ، وهو اهتمام عرف استمراراً اذ انه تخلل ـ منذ نشر « محاورات » بارون دي لاهونتان ، عام1703 ـ مجمل القرن وابحاث شتى الاختصاصيين ، فكان كل من علماء الطبيعة والفلاسفة والاطباء والروائيين على صلة بالمتوحش . نقول عودة الاهتمام لانه بعد همود المناقشات والمجادلات التي طرأت اثر اكتشاف العالم الجديد ، استُنفد حب الاطلاع على المتوحشين ، يرتبط القرن الثامن عشر ، في الظاهر اذن ، مع خطاب النهضة ، من جديد ؛ ولعل وجود صلة في هذه المسألة قد استرعى الانتباه بكل طيبة خاطر . صحيح انها بقيت كما هي الكلمات التي تصف او تحدد الشعوب المتوحشة ـ الطبيعة ، الحرية ، البراءة ، عدم التمييز بين « ما يخصك » و « ما يخصني » ـ وانه بوسع روسو وديدرو ، بالتأكيد ، التذكير برونسار ومونتانيْ . وصحيح ايضاً انه امكن ، في ازمنة مختلفة ، صياغة احكام تقويمية (لا يوجد شيء مدهش في هذا الامر ، ولا تسمح مثل هذه الاحكام الا بالقليل من الاحتمالات المتميزة) : كما ان ثمة مفكرين

مختلفين وجدوا فيها اهمية متساوية ، وانها لقراءة غريبة تلك التـي لا تجعل مونتانيْ مبتكر « المتوحش الطيب » . ومن الممكن انطلاقاً من هذه التشابهات اعادة تركيب الافكار الاساسية المتعلقة بالمتوحش ـ الطيب او السيء او الاثنين معاً ؛ ولقد حصل ذلك . بيد انه ربما كان هذا الامر غير ملائـم تمـام الملاءمـة ، اذ بوسعنـا ان نعبـر بكلمات متشابهـة عن خطابات مختلفة بشكل ملموس : فالمعنى يتغير ، والنظرة الى الموضوع ، واخيراً الموضوع نفسه . لم نقل ، دوماً ، نفس الشيء عن المتوحشين ، ولم نضعهم دوماً على نفس المسافة ، وحول هذه المسألة الجـديدة كل الجدة يفتتح القرن الثامن عشر ، فعلاً ميداناً جديداً :

ان الجدَّة والقطيعة هما اللتـان تبـدوان لنـا ذات معنـى اكثـر من استمرارية مع بعض مفكري عصر النهضة (واكثر من التصور المسبق لما لن يُقال فعلاً إلاّ فيما بعد) ؛ انه التناغم السري الذي يتخلل كل القرن ويربط فيما بين اعمال هي مع ذلك شديدة الاختلاف ، وفيما بين افكار هي مع ذلك متباعدة او متناقضة . يعني ذلك ان الخطاب الذي تبلور في القرن الثامن عشر حول المتوحشين يمتاز بوحدة خاصة به ، وهي ليست وحدة تفكير بل وحدة ترجع بالاحرى الى شكل خاص من الخطاب والى « كليات » * مشتركة . انها وحدة من النوع البلاغي تفـرض على هذا

(*) الكليات(Universaux) : « هي المعاني المجردة الخمسة : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام ، وقد سماها ارسطو المحمولات (المنهل ، 1979 ، ص : 1060) . وهي ، في قاموس(Petit ROBERT 1 , 1977, and P. 2050) ، المفاهيم الخمسة التي تحدد شتى الطرق التي يرتبط بها المحمول الى الموضوع بعلاقة ما (الجنس ، النوع ، الاختـلاف او الاختـلاف الخاص ، الخاص ، العارض) . اما (المعجم الفلسفي ـ مجمع اللغـة العـربية ـ القاهـرة ، 1979 ، ص : 154) فيرى انها :

(أ) هي المعاني العامة التي تصدق على كثيرين ، ولها مفهوم يدل على خصائصها ومميزاتها ، ولها ما =

الخطاب حدوداً ، هذا ان كانت لا تحرم عليه التنوع : ثمة افكار غير ممكنة ابداً ، وثمة افكار ما تزال غير ممكنة . ليس موضوع فن الخطابة في عصر الانوار ، وهو فن منظم بفكرتين ناظمتين ـ الطبيعة والعقل (الاولى مشوشة على الاقل) ـ تسمحان ، ان لم تتناقضا مطلقاً ، بان نعتقد (subsumer) ان كلاً من حالة التوحش والتحضر متضمنة في مجموع ما ، ليس موضوع فن الخطابة هذا المتوحشين ، بل **المتوحش** ، وبحيث لا يكون المتوحش ، في النهاية ، إلاّ موضوعها الظاهري .

(هل هو طيب ، هل هو خبيث ؟)

« أ . يبدو لي هذا الخطاب عنيفاً ؛ الا انه يبدو لي ، من خلال شيء غير محدد من الخشونة والتوحش ، اني اعثر فيه على افكار وملامح اوروبية »(1) . ذلك ان **المتوحش** يتحدث مثل الفيلسوف عندما ندعوه الى تقديم وصف لذاته . وسواء كانت لغة **المتوحش** مباشرة او متهمة ، مثل خطاب توديع بوغينڤيل الذي ينسبه ديدرو الى الشيخ التاهيتي ، او كانت متهكمة وقحة مثل اجوبة هورونHuron على بارون دي لاهونتان ، فان هذه اللغة هي لغة رجل متنور من العصر . هكذا : « نحن ابرياء ، نحن سعداء ؛ ولا يمكنك إلا الاساءة الى سعادتنا . اننا نتبع غريزة الطبيعة النقية . . . »(2) . وسبق ان قيل في مطلع القرن :

= صدق يشمل الافراد التي تقع تحتها .

(ب) أطلقت بوجه خاص على الالفاظ الخمسة التي جمعها (فرفوريوس) في كتابه (ايساغوجي) وسميت : الكليات الخمس(Quinque Voces) وهي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . وتسمى ايضاً المحمولاتPrédicables وقد سبق لارسطو ان استعملها في « مقولاته » . (المترجم) .

(1) DIDEROT: Supplément au voyage de Bougainville.

(2) المرجع السابق .

« هـا ! يعيش الهـورون ، (Les Hurons) الذين يمضـون حياتهـم ، بدون قوانين ولا سجون ولا تعذيب ، في الهدوء والسكينة ، ويتمتعون بسعادة لا يعرفها الفرنسيون . نحن نعيش ببساطة في ظل قوانين الفطرة والسلوك البريء التي طبعتها فينا الطبيعة منذ المهد »(3) . هل هذا اسلوب ادبي يسمح ، بتأثير التناقض الذي يُظهره من خلال مديح مجتمع ما يزال على الطبيعة ، بانتقاد حذر للمجتمع المتحضر ؟ بالتأكيد ، ولهذا السبب فقط يُعطى الكلام للمتوحشين . وليس استخدام هذا المرجع من اجل التفكير بمجتمعه الخاص امراً جديداً بالطبع . كان مونتانيْ قد فعل ذلك . بيد ان نظرته كانت مختلفة بشكل جوهري . لم يكن مجتمع توبينامبا Tupinamba ، لكونه متطابقاً ، بنظره ، مع الطبيعة ، اقل ايجابية ايضاً من مجتمعه هو : « انهم متوحشون ، كما نسمي الثمار التي تنتجها الطبيعة من تلقاء ذاتها وبحكم تطورها ، متوحشة » . ومن أجل ابراز تنوع العادات ونسبية ما يرجع الى الاعراف المختلفة ، فانه يأخذ كل مجتمع في خصوصيته ، وهو بهذا المعنى يقارنها فيما بينها . وبهذا المعنى يكون المتوحش هو ، فعلياً ، صاحب خطابه : لا يأخذ مجتمع المتوحش كامل ابعاده وبشكل غير سلبي ، فحسب ، بل ان نظرته تكون ، عندما يُدعى الى الحكم على مجتمع مونتانيْ ، نظرة هندي من التوبينامبا : اي يدهشه منظر طاعة الجميع الى فرد ، قد يكون ، علاوة على ذلك ، طفلاً ، ومنظر الانقسام الى اقسام غير متساوية ، الى اغنياء وفقراء ، وهو انقسام مقبول بدون تمرد . ويكون الفرق ، على العموم ، هو ان متوحش مونتانيْ يبحث في الاتنولوجيا بينما يبحث متوحشو ديدرو او دي لاهونتان في الاخلاق

LA HONTAN: Dialogues eurieux entre l'Auteur et un Sauvage de bon sens. (3)

بالاحرى . لا يعني ذلك غياب حقائق عن مجتمعات المتوحشين في هذه الاعمال . لنتذكر ان لاهونتان (المقروء جداً في القرن الثامن عشر) قد عاش مدة طويلة في كندا ، وان ديدرو كان يعرف تمام المعرفة الشهادات (بوغينفيل ، وشارلفوا ايضاً او الاب غوميلاGumilla الذي رجع اليه في بحثه حول النساء ، وليثبت هذه المرة ، بالمقارنة مع وضع نساء اورينوكOrénoque غير المرغوب فيه ، ان احترام النساء هو من فعل المجتمع المتحضّر) . وبالتأكيد ، لا يتضمن التخيل الادبي حقائق اقل من الخطاب العلمي ، كما انه يستخدم ايضاً نفس المصادر . يبقى ان نشير الى ان استدعاء المتوحشين لا يعني التكلم عنهم الى هذه الدرجة ، بل التكلم عن الذات ، سواء قصدنا الاشارة الى عيوب مجتمع راهن ، او قصدنا ، بالعكس ، مدح فضائله ، هكذا يصبح المتوحشون ، من الآن فصاعداً ، موضوع خطاب لا يأخذهم بعين الاعتبار إلاّ بقدر قدرتهم على تجسيد فكرة طبيعة كونية ؛ وعندما نتكلم عنهم نتكلم في الحال عن **الطبيعة** ، وعنها فقط اي عن طبيعة حكيمة ، عقل طبيعي ، طبيعة متناقضة مع الاصطناعي والاصطلاحي ؛ ولكننا نتكلم عن الطبيعة القاسية ايضاً ، عن عدم فعالية وضعف الحق **الطبيعي** بالمقارنة مع الحق الوضعي . يسمح الرجوع الى الطبيعة اذن بالمجادلات ، ويؤدي ايضاً الى رؤيات متناقضة عن **المتوحش** ، إلا انه يجعل منهم (المتوحشين) في كل الحالات صورة عن الكوني ، او الفيلم الذي يحمل الصورة الاصلية(négatif) . وبالنتيجة يُستخدم **المتوحش** فقط ، ليرُد الى المتحضرين الصورة التي لا يتطابقون معها .

ما هي المحمولات التي يغلفها مفهوم المتوحش ؟ تقول **الموسوعة** (L'Encyclopédie)، في مقال « المتوحش » : « شعوب بربرية تعيش

بلا قانون ولا شرطة ، ولا دين ، ولا تعرف الاقامة الثابتة » . انها تفسر ، بواسطة علم الاشتقاق ، استخدام الكلمة المشتقة من selvaticus (*) «لأن المتوحشين يسكنون الغابات ، عادة» ، وتعطي مثلاً على ذلك اميركا التي ما تزال مأهولة ، بقسم كبير منها « بامم » متوحشة . بدون مَلك ، وبدون قانون ، وبدون ايمان ، وبدون بيت ومقر ، اي ان ثمة شلالاً من السلْب يعطي لتعبير حالة التوحش مجمل معانيه ، اي حالة المجتمع الطبيعية (ذلك انه قلما وضعت ، باستثناء روسو ، مسألة اجتماعوية الانسان موضع تساؤل) . فالمقصود اذن هو المجتمع ؛ ويتابع المقال : « ان الحرية الطبيعية هي الموضوع الوحيد لتنظيم المتوحشين ؛ وبهذه الحرية يكاد الطبيعة والمناخ يسيطران لوحدهما عندهم » . لنضرب صفحاً عن مسألة المناخ . ان اول نعت للتوحش ، الذي اليه يرجع كل السلْب السابق ، هو الحرية : اي ، في نفس الوقت ، حالة الافراد الطبيعية ، وبهذا الشكل ، موضوع التشريع في المجتمع . فلا يمكن « للحق الطبيعي » ان يعرف غاية اخرى (بقدر ما يكون متطابقاً بالتحديد مع الطبيعة) إلاّ ضمان استقلال الناس المجتمعين في مجتمع . ولنقل بشكل عابر ، ان هذا التعريف للمتوحشين يوضح ان المثل النموذجي الذي اكثر ما نرجع اليه هو المتوحش الاميركي . ولا تدخل افريقيا مثلاً الا بشكل محدود في هذا المخطط : باستثناء القسم الذي ما يزال غير معروف تماماً ، والذي يسكنه الكُفرة Cafres(**) والهوتنتوت (وهم ، مُتوحشون) ، في حين

(*) Salvaticus, selvaticus التي تعني متوحش باللاتينية القديمة ، وهي تحريف للكلمة اللاتينية الكلاسيكسة Silvaticus ، المشتقة من Silva التي تعني « الغابة » . (المترجم) .

(**) الكُفرَة : سكان مجموعة واحات في الصحراء الشرقية الواقعة الى الجنوب الشرقي من ليبيا . (المترجم) .

ما نعرفه من افريقيا ـ ممالك الغرب التي تنظم بنفسها توريد العبيد ـ لا يسمح بتصنيف الافارقة في عداد المتوحشين . ويُقال عن الافريقي انه « خُلق ليخدم » ، وانه يُحكم « بارادة اسياده التعسفية » : ان هذه الكلمات هي للينيه (Linné) ، ولكنها تعبر عن رأي شائع في ذلك الحين . لم يمنع ذلك الاحتجاجات ضد العبودية ، لا سيما في النصف الثاني من القرن ؛ بيد ان المسألة ليست هنا . تقدم افريقيا نموذج المجتمعات الاستبدادية ، وبالتالي ، تماماً عكس مجتمعات المتوحشين المنظمة وفق « الحق الطبيعي » . لقد عرف الاوروبيون (الفرنسيون والانكليز) تجربة مختلفة كلياً مع متوحشي اميركا ، وخاصة مع متوحشي كندا ، في ذلك العصر .

ومن هنا وقوعهم في ضرورة دائمة للتفاوض مع القبائل (التي هي مع ذلك كانت قد أنهكت بفعل الحروب التي بدأت في مطلع القرن السابع عشر تقريباً) ، وهي ضرورة مُضافة الى استحالة التوصل الى التفاوض لانه لا يُعرف ، ببساطة ، ابداً باي زعيم نتمسك . فهذا الزعيم يرفض التوقيع على اتفاق متذرعاً بانه غير مفوض بذلك ، وهذا آخر يوقع على سلام لا يأخذه مقاتلوه بعين الاعتبار . ان كل تاريخ الاستعمار الفرنسي والانكليزي ، ومن ثم الانكليزي بعد تراجع فرنسا الجديدة عام1760 ، مصنوع من هذه الاتفاقات (اتفاقات السلم او التخلي عن الاراضي) التي تم الحصول عليها دوماً بصعوبة ، ونادراً ما طُبقت(4) . ان متوحشي اميركا احرار اذن ، هذا امر معروف لا سيما وانه ليس مجرد حقيقة جاءت بالمعاينة ، بل بالتجربة . يقول فولتير في

(4) راجع: L. LEMONNIER: La guerre indienne et la formation des premiers Etats de l'Ouest, Gallimard, 1952.

كتابه (L’éssai sur les mœurs) ان متوحشي اميركا المزعومين « هم اسياد يستقبلون سفراء من مستعمراتنا . . . وهم يعرفون الشرف الذي لم نسمع متوحشينا الاوروبيين يتكلمون عنه ابداً » . لا يعني ذلك ان فولتير من انصار البدائيين ، بل الامر ابعد من ذلك ، ولا يعني ايضاً ان الاميركيين ليسوا ، بنظره ، متوحشين . ذلك ان هناك ظرفاً اكثر جدارة بالاحتقار من ظرف الانسانية المتوحشة . وفي الواقع ، ان هؤلاء المتوحشين الآخرين الذين يتحدث عنهم ، والموجودين « في كل اوروبا » ، والغلاظ والجهلاء ، وضعاف التفكير ، هم خاضعون : « يجب الاقتناع ، خاصة ، ان سكان كندا والكُفرَة الذين طاب لنا ان نسميهم متوحشين ، هم ارقى من متوحشينا بما لا يُقاس . . . ان عشائر اميركا وافريقيا احرار ، بينما لا يعرف متوحشو اوروبا حتى فكرة الحرية » .

نثابر على تحديد شتى انماط هذه الحرية . وهي تظهر ، في الدرجة الاولى ، في النظام السياسي ، انها غياب الخضوع الى اية سلطة كانت . وهي تولد ، في احسن الحالات ، مجتمعات تحكم نفسها بالاعراف ، وتولد ، في اسوأ الحالات ، الفوضى الخالصة والبحتة . لا تعطي شهادات كتاب الحوليات إلاّ تأكيدات على هذه المسألة : يبدو على الفور ان الحوليات انما كتبت ، كنتيجة لهذا النقاش ، من اجل توضيح احد هذين الاحتمالين . يذكرنا شارلڤوا بالحرية المفرطة (المضرة بالنسبة لناس بلهاء اكثر من اللزوم في حال استعمالها) التي كان يعيش فيها هنود الباراغواي قبل اقامة اليسوعيين فيها ، والفوضى التي ما يزال يعيش فيها هنود كندا . هذه الامثلة معروفة جيداً ، وهي ليست وحيدة . يكتب الاب غوميلا ، احد مؤسسي ارساليات اورينوك ، بعد ملاحظة قصيرة

حول وظيفة القوانين والحكومة : « ليس هناك من شبه ، ولا حتى من ظل لمثل هذا الشيء في الامم التي اتحدث عنها ، لا بشكل عام ، ولا في اي منها بشكل خاص . ان اي وكر نمل . . . يحكم نفسه بانتظام اكثر من اي واحدة من الامم العديدة التي شاهدتها »(5) . وتطابق الفوضى في المجتمع ، الفوضى داخل العائلات : لا وجود مطلقاً لطاعة الابن لابيه ، وسوء سيرة النساء حتى ارتكاب المحرم الذي لا يثير الا المزاح . ان عائلات شيوخ القبائل ، والتي هي من اسوأ العائلات ، تعطي ، بسبب تعددية الزوجات ، مشهداً من اكبر مشاهد الفوضى . انه على العموم ، الرسم الحي لما يسميه ديدرو « حالة القطيع » حيث « لم يشكل الرجال المتقاربون بفعل تحريض الطبيعة البسيط . . . اية اتفاقات تخضعهم الى واجبات ، ولم يكونوا سلطة سياسية تُلزم بتطبيق الاتفاقات »(6) . وفيما بعد ، يصحح الاب جيليج Gilij بعض الشيء من بيانات سلفه (ولكن غوميلا هو الذي تُرجم وتمت قراءته في فرنسا) ، وليس ذلك دون ان يؤكد هو ايضاً على عدم فعالية التنظيم السياسي : واذا كان يجب الامتناع عن الاعتقاد بان حرية متوحشي اورينوك هي مثل عن « اضرار التربية او العرف » ، يبقى ان نشير الى ان شيوخ القبائل لا يتمتعون إلاّ بالنفوذ ، وليس بالسلطة ؛ ويلاحظ جيليج ، انهم اذا كانوا عاجزين عن فرض الطاعة لهم ، فذلك لأنه ليس لارادتهم اهمية اكثر من ارادة باقي الرجال(7) . وسواءُ استهجنّا ذلك (كما فعلت غالبية المرسلين : اليسوا هناك ليضعوا حداً لذلك) او

---

(5) Gumilla: EL Orinoea ilustrado y defendido

(6) Apologie de l'abbé de prades

(7) GILIJ: Ensayo de historia americana

استحسناه (لم يوفر الاب دوبريزوفرDobrizhoffer مديحه الى أبيبون Abipons) ، فإن الميل الى الاستقلال يميّز الاميركيين . وفي جميع الامم المتوحشة التي ما تزال موجودة في اميركا ، نشهد نفس حالة عدم الخضوع . ولعله من المفهوم كيف استطاع بوفونBuffon وصف المجتمع المتوحش على انه « جمع صاخب من الناس البرابرة والمستقلين الذين لا يخضعون إلاّ الى اهوائهم الخاصة »(8) . وبالتأكيد ، يوجد في امكنة اخرى متوحشون يقدمون مثالاً على المجتمعات الهادئة وان كانوا مجردين من السلطة السياسية : لقد جاءت تاهيتي اثر اكتشافها لتوازن المثال الاميركي . بيد ان ذلك لم يغير من الجدال الذي كانت خلفيته ، او بتحديد اكثر موضوعه الفعلي ، في مكان آخر . لقد ارادت المناقشات تأكيد حقيقة ان الحق الطبيعي هو ، بالتأكيد ، اضعف بكثير من تأمين العقل ، هذا اذا لم يكن متناقضاً معه : ومن هنا نشأ المظهر المزدوج للتوحش الذي يعطي صورة عن السلم والبراءة كما يعطي صورة عن العنف والقساوة . وبمقابل ذلك يكون « الحق المدني » ارقى بما لا يقاس ، لتطابقه مع العقل ، او على الاقل لميله الى تحقيق هذا التطابق ، كما انه اكثر استقراراً . ولا يكون المجتمع المتوحش ، في هذا السياق ، هو المجتمع الصالح (باستثناء روسو الذي يضع الانسجام اما في « حالة بداية المجتمع » او في نظام ما يزال مستقبلياً) ، بل المجتمع الحالي المتحضر الذي يشهد بزوغ السعادة مع ارتقاء العقل . هكذا يكون التذرع بالمتوحش من أجل الدفاع عن مثال اعلى سياسي تجسده الليبرالية الشديدة الاعتدال .

ثمة كيفية اخرى للحرية الخاصة بحالة التوحش ، انها غياب

---

(8) Histoire naturelle de l'homme

الضرورات الـدينية . ليس لتعبـير « بـدون ديانــة » بنظــر محــرري « الموسوعة » نفس المعنى الذي عرفه سابقاً (وهو المعنى الذي يحتفظ به ، مع ذلك ، في الشهـادات المعـاصرة) . واذا جاز القـول ، فـإن هذا « الغياب » ايجابي بقدر ما نود ان نرى فيه رمزاً على التطابق مع قواعد اخرى ، قواعد الطبيعـة وقواعـد العقـل . وفي هذا المجـال ، تكون الايديولوجيا المعادية للدين هي التي تطلب ، في الواقع ، الرجوع الى هذين المبدأين العظيمين ؛ كما ان غياب الدين يسمـح بظهـور قياس آخر ، ما بين المجتمـع المتـوحش والمجتمـع المتحضر ، هو غـير غياب الحكم : بوسع الميزان ان يميل هذه المرة لصالح المجتمـع المتـوحش . الدين : ذلك الطـوق الحـديدي المكون من القواعـد « المتعارضـة مع الطبيعة والمتناقضة مع العقل » ، والتـي لا يحتملهـا بالتـالي المفـكرون المتنورون (هـذا مع العلـم بان لا فولتـير ولا الموسـوعيين ولا روسـو يضعون فائدتها في الحفاظ على طاعة الشعب موضع تساؤل) . لسنا هنا في معرض محاكمة ما اذا كانت الحرية ، او لم تكن ، صالحة بالنسبـة للمتوحشين ، وما اذا كانوا قادرين ، ام لا ، على استعمالها بحكمة : بل الفضيحة انها مرفوضة من جانب افضل المفـكرين الـذين تعرفهـم الانسانية . لا يعرفـ المتوحشون الاديان ، يعني ذلك ان الطبيعـة هي التي تحكم التقاليد وليس الكهنة ؛ وان العقل هو الذي يملي الخضوع الى اكثر الميول طبيعيةً وليس المعتقدات التي تعيقها . ولا يهم المنظرون كثيراً ان تكون الشهادات حول هذا الموضوع ابعـد من تقـديم اجمـاع عليه يكون هو نفسه اجماعها على مسألة السياسية ، وانه يسود فيها ، علاوة على ذلك ، بعض الشـك حول ما يجـدر بنـا تسميتـه الـدين . ولان عمليات الوصف لا تخلو من المعتقدات والطقوس ، فاننـا نكتفـي بان

نرى فيها ، بشكل عام ، « مجموعة من الامور السخيفة » ، أو صنمية ، كما يقول دي بروس de Brosses (وهذه هي حالة غوميلا او شارلفوا) ، او اننا نحاول اثبات تنوعها وابراز وظيفتها كمبادىء اخلاقية وتربوية في كل مجتمع (دوبريزوفر او لافيتو Lafitau) . لا يُحتفظ من نتاج كتاب الحوليات ، إلا التأكيد (وهو شائع في الواقع) بان المتوحشين بدون دين ، وهو تأكيد لا يحمل ، بالنسبة لهؤلاء الاخيرين ، المضمون الذي يعطيه له غيرهم ، وذلك لانه يُرجع اساساً الى غياب فكرة الله . نحن نأول اذن ، ونهمل ، في الغالب شهادات من يبذل جهداً ليصف المعتقدات والطقوس ،وليفسر وظيفتها . عُرف دوبريزوفر مؤخراً(9) ؛ بيد انه تم تجاهل لافيتو عمداً (في فرنسا على اية حال ، وبدرجة اقل ، كما يبدو ، في انكلترا) فلا يذكره فولتير ، مثلاً ، إلاّ ليسخر منه ، ولا يرجع هذا الاحتقار ، فقط ، الى كون الاب لافيتو يجعل ، وهو يقارن تقاليد الاميركيين بتقاليد العصور القديمة ، من اليونان متوحشين - اوليس (Ulysse) شيخ قبيلة صغيرة ؛ المركب ارغو Argo، جذيعة * ، او بالاحرى زورق انقاذ(10) - بل لانه يهتم ايضاً بما لم يكن يهم ، في ذلك الوقت ، احداً : اي الامور الغريبة . سنرجع الى ذلك .

اخيراً ، لا يعرف المتوحشون « استقراراً في السكن » . لا يعطي هذا الامر صورة عن البداوة ، بقدر ما يعطي آخر صفة لحالة التوحش :

(*) جذيعة : زورق صغير يصنع بتجويف جذع شجرة .

(9) نُشر مؤلفه Historia de Abiponibus في العام 1784 .

(10) LAFITAU: Mœurs des sauvages américains comparées aus mœurs des premiers temps, 1724.

اي المساواة الناجمة عن عدم تملك الارض . يجب على الناس الذين يؤمنون استمرارهم مما تنتجه الطبيعة ـ يصطادون على اليابسة وفي الماء ويقطفون الثمار ـ ان يتنقلوا بالتأكيد . ولكننا نعرف ايضاً ان بوسعهم زرع الارض (يقول كتاب الحوليات ذلك ، ويحدده الموسوعيون ، بالنسبة للاميركيين) : بيد انهم لم يتملكوها ، ولم يكن عندهم فكرة عن توزيعها إلا كفكرتهم باقتسام الهواء والسماء . ولا وجود للثروات عندهم ، باستثناء الادوات القليلة التي يستعملونها ، ولذلك فان المتوحشين متساوين . لقد ولدت عدم المساواة والملكية معاً ، واساساً ، مع الملكية الخاصة للارض ، لم يكن روسو الوحيد الذي قال ذلك ، فان المنظرين الذين تساءلوا ، قبله وبعده ، حول اصل الملكية ، قالوا نفس الشيء ، حول هذه المسألة ، مع بعض التغييرات الثانوية . فهل هذا الأمر خير أم شر؟حول هذه المسألة كانت الأفكار تتجابه . كانت حاجات المتوحشين المجردين من الثروات قليلة ، ومن هنا ، مرة اخرى ايضاً ، استقلالهم ، ولقد تساءل روسو الى اي نير يمكن اخضاع اناس لا يحتاجون الى شيء ؟ » ، ومن هنا ايضاً ركود مجتمعهم ، وجهل الافراد ، وكسلهم او غبائهم . وبالمقارنة مع ذلك ، اما ان نُشهر بالمساوىء التي يؤدي اليها التفاوت والافراط في الغنى وتعدد الحاجات المصطنعة ؛ واما ان نروج ان هذه المسائل هي شروط وثمن التقدم . هكذا رأى تورغو Turgot في الغياب المزعوم للتفاوت عند المتوحشين ، برهاناً على دونيتهم : التفاوت شرط لتقسيم العمل ، وبالتالي للتبادل والتجارة ، اي لجميع الحسنات الاقتصادية والاجتماعية . ويكون « تفضيل المتوحشين » ، بالنتيجة ، « كلاماً مضحكاً » . (ولكن من « اعلن » ذلك في يوم من الايام ؟) . وهكذا مدح رينال Raynal

الملكية الخاصة ، مولدة التقدم : « لا يمكننا الشك بان الحكمة التي تجعلنا نرى الملكية الخاصة بمثابة مصدر لتكاثر الناس والغذاء ، هي حقيقة اكيدة »(11) . انه قرن مواليدي يفسر، من بين ما يُفسر ، التوحش الذي استمر عليه الاميركيون ، بقلة عددهم . ينكر رينال ، وغيره ، ان تكون دولة الاينكا قد استطاعت ان تكون فعلاً متحضرة مع نوع الملكية الذي عرفته ، حتى وان لم ينسب ، من جهة اخرى ، الى هنود البيرو نفس العيوب التي يتصف بها المتوحشون الآخرون (بليد ، كسول ، جاهل ، غبي . . . بالنسبة للهاييتي ؛ غبي ، طائش ، مفرط في الكسل ، جبان . . . بالنسبة للغارانيGuarani) . ذلك ان هنود البيرو كانوا قد عرفوا الاسياد على الاقل .

ليس المقصود التأمل بمجتمع لا توجد فيه ملكية خاصة ، وسلطة سياسية ، والخ ، بل الحكم اين يوجد المجتمع الصالح (المجتمع الذي يوفق ، اخيراً ، بين الطبيعة والعقل) . قد يكون هذا المجتمع ، حسب وجهة النظر المستهدفة ، مجتمع المتوحشين ، وفي الغالب هو المجتمع الذي نراه يتكون . وتتم العودة الى المتوحشين الذين يجري قياسهم وفق هذين المعيارين الثابتين ، من أجل اثبات ذلك ؛ اما بالنسبة للمتوحش نفسه ، فهو موضع الحكم تقريباً دائماً . المتوحش كسول ؟ هذه علامة فساده الاصلي وبلاهته (رينال ، شارلفوا ، وغيرهما ايضاً) ؛ او اثبات على ان الطبيعة لم تضمحل فيه ، ألم يقل روسو ، الفيلسوف الوحيد في عصر الاخلاقيين ، (ان عدم القيام باي

---

(11) RAYNAL: Histoire philosophique et politique des établissemeuts et du commerce européen dans les deux Indes.

شيء هو اول ميل واقواه عند الانسان . . .) ؟ لنكمل هذه النظرة بهذا الوصف الاخلاقي للمتوحش الذي كتبه الاب غوميلا : « الهندي ، بشكل عام ، هو انسان بالتأكيد . ولكني لا اخشى ، من وجهة النظر الاخلاقية ، من التأكيد بان الهندي البربري الذي يعيش في الغابات هو مخلوق شاذ لم يسبق ان رآه احد : رأسه جهل ؛ قلبه عقوق ؛ صدره تقلب ؛ كتفاه كسل ؛ رجلاه خشية ؛ اما بطنه المخلوق للشرب وميله للسكر فهما هاويتان لا نهاية لهما »[12] .

[اكتشاف أميركا]

يتساءل رينال ، كم من الوقت « سيبقى العالم الجديد مجهولاً ، اذا جاز القول ، حتى بعد اكتشافه ؟ إلا يجدر بنا ان نعطي الى الجنود البرابرة والتجار الجشعين ، افكاراً صحيحة ومعمقة عن نصف العالم هذا»؟ هذا هو الأمر الواضح : انما الأفكار،هذا ما نريده. فالتاريخ الذي يكتبه هو اذن فلسفي وسياسي ؛ سيجري كورنيليوس دي پو Cornelius de Pauw على الاميركيين **ابحاثاً فلسفية** . عندنا ما يكفي من التواريخ ، لقد افرطت بارباكنا الروايات التي تراكم عمليات وصف الامور النادرة ، والتي لا تعلق اهمية إلا على « الامور الغريبة » ، والتي لم تفعل ، في الحقيقة ، إلا تشويه الوقائع . ان كل هذه الاساطير تصلح بالتأكيد لتسلية الناس الطيبين ، ولكنها غير صالحة لتُلهم الفلاسفة افكاراً . ان اميركا غير معروفة ، وعلى عصر الانوار مسؤولية اكتشافها . ثمة حركة نقدية تبدأ ، وهي ، بانتظار مجيء الرحالة المثالي الذي يمثله الرحالة ـ الفيلسوف ، ترفض تقريباً كل هذه

---

(12) غوميلا ، مرجع سابق .

الشهادات . ألا ترجع ، بغالبيها ، الى رجال جهلاء؟ان الحمية النقدية عامة (ولا يشذ روسو عنها) . لقد رأينا رأي فولتير « بمتوحشي اوروبا » : ليس غريباً اذن ان ينصح برفض « الوقائع المظلمة » التي اعطاها « رجال يلفهم الظلام » ، وبقراءة سرد اخبار البلدان البعيدة بروح الشك ، وبعدم الاعتراف بصحة إلاَّ الاحداث التي دونتها السجلات الحكومية ، او التي تشهد على صحتها سجلات المؤلفين القدامى « الذين عاشوا في عاصمة ما والذين كانوا ينورون بعضهم البعض » . نقول بين قوسين ، اننا بعيدين عن مونتانيْ الذي يتعلم من حاجبه ويستعمل مقياساً آخر : « هذا الرجل الذي كان عندي ، هو رجل بسيط وبدائي ، وهو حالة قادرة على أعطاء شهادة فعلية : ذلك أن الناس الأذكياء يلاحظون بدقة أكثر من غيرهم كما يلاحظون أموراً اكثر ، ولكنهم يعلقون على هذه الأمور» . ان تطابق الوقائع مع العقل، هو، بنظر عصر الانوار ، ونظراً لغياب الشهادة الجديرة بالثقة ، هو الذي يسمح بالتحقق من صدق هذه الوقائع . هكذا سيسمح هذا التطابق للبعض (رينال ، بوفون ، دي پو) بوضع الآيات العجيبة ، التي رواها الرحالة القدماء عن المكسيك والبيرو ، في موضعها السليم والمطلوب : فهل يعقل ان يكون المتوحشون قد استطاعوا بناء القصور ؟ كلا . لم يكن يُقصد في الحقيقة إلا الخيام : من المعروف كيف تنزع العقول الفظة الى المبالغة . لم يقبل بوفون بمراجعة هذه النظرية (اميركا متوحشة بكاملها) إلا فقط بعد عودة جوسيوJussieu والموسوعيين من البيرو . يندهش الشهود المعاصرون ويثورون امام هذه الكمية من المنازعات حول المتوحش وحول اميركا . فالاب جيليج يبدأ كتابه بتصريح معاكس لتصريح رينال ويستهدفه مباشرة . لم تشهد اميركا ، منذ

اكتشافها ، فهماً سيئاً لها كما هي الحال اليوم ؛ لقد بتنا نمتلك ، منذ قرنين ، اخباراً جديدة وشهادات تعطي كل مظهر الحقيقة وثباتها . ولقد قال اوفيدوOviedo وغومارا Gomara وباقي الاسبان كل شيء عن الهنود ، ولم يخفوا شيئاً لا عن علاقاتهم معهم ولا عن خصوصيات المجتمعات الهندية . ثمة شهادات لا عيب فيها هي « مثل سيزار الذي كان يمسك بيده دوماً السيف والريشة » . وكان يهاجم معاصريه الذين كانوا ، في نفس الوقت ، مشغوفين باميركا ولا يشيعون عنها إلاّ الاخبار الملفقة . ولقد شارك من جانبه بالمجادلات : كان يستهدف ، بوصفه مرسلاً ، اولئك الذين كانوا يمدحون فضائل المتوحش دون ان يعرفوا شيئاً عنه ، وذلك فقط من اجل الحط من المسيحية : « وها هو شيخ قبيلة ومُليك على حفنة من العراة يبدأ الخطابة ويأتي ليلقي علينا الدروس ! » وهو نفسه ابعد من يكون عن ادراك ان كل ما قيل لا يعدو كونه مجرد تلفيق . واذا كان لا يمل عن تكرار القول بان الشهود القدماء قد قالوا الحقيقة في كل شيء ، فانه يسجل ، مع ذلك ، تحفظاً ، ليس قليل الاهمية ، حول عدد السكان : « انا لا انكر اننا سرعان ما نكتشف عند هؤلاء المؤلفين القدامى روح المبالغة . . . ولأعطي مثالاً على ذلك ، اقول اني لا استطيع شخصياً الاقتناع بعدد الهنود الكبير الذي كان ، كما يقولون ، يسكن اميركا . وتبدو لي هذه الاوكار التي تعج بناس لا عدّ لها ، وبآلاف اللغات والشعوب المختلفة ، بمثابة اساطير »(13) . كان على الشهود والمنظرين (لم يكن الشهود اقل انتاجاً للنظرية) ، بالتالي ، تقويم المصادر ، ووضع الحقيقة حول الاميركيين . المسألة الاولى هي انهم ، كما رأينا ذلك ، متوحشون (اننا نضرب صفحاً عن تفاصيل

---

(13) جيليج ، مرجع سابق .

النقاش حول البيرو والمكسيك ، لانهما بالاحرى « متحضران منذ فترة قريبة جداً » وبالتالي ليسا متوحشين فعلاً) ، كما ان المجتمع المتوحش هو مجتمع الاصول : يثبت ذلك تطابقه مع الطبيعة . هنا ينطرح السؤال حول معرفة لماذا بقيت هذه المجتمعات في تلك المرحلة ، وهو سؤال ينطرح ، بتعابير خاصة ، بالنسبة للعالم الجديد . لا يعني ذلك ان التطور من التوحش الى الحضارة تطوراً ضرورياً : انها فكرة غريبة عن خطاب القرن الثامن عشر ، وتستبعدها الكليات التي يطرحها هذا الخطاب كمسلمات . وبما ان الطبيعة هي نفسها ، واعطت للناس في كل مكان نفس الاتجاهات ، وانطلاقاً من الاوضاع المتماثلة ، نفس الافكار (تشكل فلسفة لوك التي استعادها كونديلاك في القرن الثامن عشر اكبر نموذج) ، فقد كان بوسعنا توقع ان يسير العالم الجديد في خط العالم القديم : نفس السمات الجسدية ، نفس التقاليد حيث يكون الوسط الطبيعي متشابهاً . الا اننا اكتشفنا مكان التوازي المتوقع تفاوتاً . لقد وُجدت ، او ما تزال توجد ، في العالم القديم ، وهو اكثر تنوعاً بكثير ، جميع اشكال المجتمع ، من اكثرها توحشاً حتى اكثرها تحضراً . ففي الشمال نجد ان شعوب لابونLapons وساموجيدSamojèdes ، الخ ، جميعهم متساوون في الصغر والقبح ، جميعهم متساوون في البدائية والخرافة والغباء ؛ كما نجد نفس الخصائص الجسدية ، ونفس « المزايا » الاخلاقية ، ونفس التقاليد . وكلما ابتعدنا عن الشمال عثرنا تدريجياً على شعوب اقل صغراً وقباحة وبدائية حتى التتر وهم اكثر المتوحشين « حضارة » . ونجد نفس التدرج معكوساً كلما اقتربنا من المنطقة الحارة . In natura non datur saltus . تُفسر اذن هذه الاختلافات بالمناخ وبالانحطاط . ذلك ان الطبيعة عملت فقط على خلق

الانسان كمولاً ، بيد ان تطوره الفعلي مرتبط بعوامل من خارج طبيعته الخاصة : يسمح المناخ المعتدل ، او الوسط الطبيعي غير المفرط في قساوته ، والذي تسهل بالتالي السيطرة عليه ، بوجود سكان اكثر عدداً (وهناك الكثير من شروط التقدم) . وحيث لا توجد كل هذه الشروط الملائمة مجتمعة يبقى البشر متوحشين . وهكذا يكون التاريخ الذي ينظم الانسانية هو تاريخ الطبيعة . بيد ان اميركا لم تنتج هذا النموذج ، على الرغم من نفس تنوع المناخ . وبالتأكيد يمكن مقارنة شعوب الاسكيمو بشعوب لابون ؛ كما ان بوسع الشروط المناخية الخاصة تفسير عدم وجود زنوج في مناطقها الحارة : فالرطوبة فيها اكبر . الا ان سكان المناطق المدارية لا يخضعون الى الملوك ؛ كما انه لا توجد فيها مجتمعات متحضرة ؛ كما انه لا يمكن مقارنة المتوحشين الكنديين بالتتر . قال فولتير : « بوسعنا ان نقدم ملاحظة عن امم العالم الجديد لم يقم بها الاب لافيتو : وهي ان الشعوب البعيدة عن المناطق المدارية كانت دائماً شعوباً لا تُقهر ، وان الشعوب الاكثر قرباً من هذه المناطق كانت خاضعة دوماً تقريباً الى الملوك . وكان الامر على هذه الشاكلة لزمن طويل في قارتنا . ولكننا لا نرى ابداً ان شعوب كندا قد ذهبت الى حد الاستيلاء على المكسيك كما انتشر التتر في آسيا واوروبا »(14) . يطرح اذن توحش اميركا مسألة خاصة لان نظرية المناخ لا تكفي لتحليل اختلافها (عدم تميزها الداخلي واختلافها العام مع العالم القديم) . ويجب بالتالي ان نجد لذلك اسباباً اخرى . ويُقدَّم على ذلك سببان اساسيان . يثير السبب الاول ، لانه ابعد من الحصول على الاجماع ، مناقشات جديدة : هل السكن في اميركا قديم ام حديث ؟ يصيغ البعض هذا

---

(14) Voltaire: Essai sur les Mœurs

السؤال بشكل آخر ، الا انـه يبقـى في نفس المضمـون : هل اصابهـا الطوفان الكونـي متأخـراً ؟ بوسعنـا الاشـارة ، دون الدخـول هنـا في المحاجحات التي تتجابه ، الى ان انصار السكن الحديث فيها لا يكتفون بهذه الفرضية الوحيدة : بوسعها تفسير ان المكسيك والبيـرو لم يكونـا متحضرين فعلاً ؛ ولكنها لا تفسر عدم تميزية الباقي : ان عدم وجـود شعوب خاضعة الى ملوك مستبدين وعـدم وجـود شعـوب فاتحـة ، لا يتطلب وقتاً اطول . اما الحجة الثانية ، وهي التي تلقى اجماعاً ، فانها ترد السبب ، مرة اخرى ، الى اسباب طبيعية : قلة السكن في امـيركا التـي ترجـع الى ضعف التناسـل عنـد الرجـل الامـيركي . ليس هذا الضعف عند الرجل وحده . ان كل الغرائز والميول التي منحتها الطبيعة الى الحيوانات والنـاس هي بدرجـة اقـل في امـيركا . فكل شيء فيهـا ضعيف . يقول فولتير « ان اسود اميركا ضعاف وجبناء » (ولهذا نسمي الاسد الاميركي كوجر) ، وكذلك النمور ؛ كما ان القمح الامـيركي اقل جودة . فلا شيء يدعو للدهشة اذن ان يكون المرء فيها اضعف : اكثر خوفاً وبلادة ، والخ ؛ وخاصة نقص الحماس تجاه الجنس الآخـر (يختلف رأي المرسلين حول هذه المسألة الاخيرة : ولكن هل بوسعنـا تصديق المرسل حول هذه المسألة ؟) . فكيف يمكن لهذا الانسـان ان يسكن القارة ، وكيف يمكنه التقدم ؟ استطاعـت المكسيك والبـيرو ان تكونـا اكثـر سكانـاً نسـبياً ، الا ان ذلك اقـل بكثـير ممـا ادعـاه لاس كازاسLas Casas ، مثـلاً . وفيما خص البقية ، فان الارقـام ، ببساطة ، مستبعدة . فالعقل يكذب الشهود . ولو انهم قالوا الحقيقـة لكانت اميركا نسخة مطابقة للعالم القديم ، مع نفس التدرج المتناسق من اقصى المتوحشين حتى متحضري المناطق المعتدلة . الا انها بدلاً من

ذلك ، بقيت بكاملها تقريباً في حالتها الاصلية .

ينجم الاهتمام الحاد الذي تثيره مما يلي : انها تعطي للعالم المتحضر صورة راهنة عن بدايته بالذات . ولكن لماذا اميركا ، طالما ان للعالم القديم متوحشيه ايضاً ؟ ولكن هل بوسع اوروبا المتحضرة تأمل صورة طفولتها في الاقوام الرُقية ؟ او في متوحشي شمالي العالم القديم الذين هم بالكاد بشر لكثرة ما انحطوا (الكلامَ هنا لبوفون) ؟ ومن ثم فهم قبيحون للغاية ! وعلاوة على ذلك ، فانها لا تجدها في زمنها التاريخي الخاص بها ، فهي كانت دوماً متحضرة مهما رجعنا الى الوراء (يجب ان يكون المرء مثل لافيتو حتى يخلط بين اليونان والمتوحشين) . ان اميركا وحدها ما تزال في عهد الطفولة ، ولهذا السبب متوحشة . انها عالم حر وقريب من الطبيعة ، في نفس الوقت ، ويقدم ، هنا وهناك ، بدايات التقدم . انه تقدم بطيء ، للاسباب المعروفة ، ولكنه تقدم ممكن ومرئي . وليست هذه حالة الآخرين المتوحشين ايضاً دون ان يكونوا اطفالاً . ذلك ان التاريخ الذي تم تصوره في القرن الثامن عشر لم يكن تطورياً . وليس هناك اية ضرورة للانتقال بكل مجتمع من التوحش الى الحضارة . بل على العكس ، فثمة ظروف خارجية ، مصادفات (ملائمة او مأساوية ، حسب فولتير او حسب روسو) تفسر التقدم في كل خطوة ؛ من هذه الظروف وجود بضعة رجال مبدعين ، وموهبة التقليد . وليس هناك اية قاعدة للتطور الداخلي في المجتمع ، مشابهة لقاعدة تطور الفرد : واذا ما استخدمت هذه الصور عمداً ، فلان بوسعها ان تكون صوراً بطريقة جامدة . وبالتأكيد بدأت جميع المجتمعات من حالة التوحش . بيد ان هذا التأكيد لا يعني إلاً امراً بدهياً : لم يخرج العالم المتحضر متسلحاً تماماً من ايدي الله او الطبيعة .

لقد عرف بداية ، وكان تطوره تدرجياً . ابتـكار تدريجـي للتقنيات ، واللغات ، وتبدل تدريجي في التقاليد واشكال الحكم . يصف المنظرون (تورغو ، كوندورسيهCondorcet وغـيرهما) هذا التقـدم ، بتعابـير بوسعها ان تذكرنا ، بالتأكيد ، بالتعابير التي سيستخدمها التطـوريون فيما بعد . بيد ان التشابه يقف هنـا ، فالافـكار مختلفـة جذرياً . ليس التقدم تلك الطريق التي تنفتح امام المجتمعات المتوحشة ، بل تلك التي يجب ، بالعكس ، تصورها حتى يمكن تحليل المجتمع الراهن . هكذا نتعلق بربط شتى المجتمعات التي تقـدم الجغـرافية جدولاً بهـا ، وفـق متتـالية تبـدأ من البسيط الى المركب (بالنسبـة لانمـاط الحياة والتقـاليد واللغات والقوانين) ، ونصوغ لها تاريخاً تجب قراءته وفق نسـق من الاسباب اكثر من قراءته وفق نسق فعلي ـ زمني . لا يهمنا التاريخ ، في الواقع : انه لا يفعل ، بوصفه فكرة ناظمة اكثر مما هو مبدأ محدد ، إلاّ ملء الفراغ بين القطبين اللذين يتنـاولهما التفـكير لوحـدهما في القـرن الثامن عشر . يعني الاصل والنهاية اللذين يحددهما **الطبيعة والعقل** . لقد تطلبت ولادة التطورية استبـدال هذين المجموعـين من الـكليات بالتاريخ بوصفه هو ايضاً مبدأ محدداً . ليست التطورية في علم الاجتماع نظرية قديمة قِدَم العالم ، بل هي تظهر في القرن التاسع عشر . هكذا يمكن ان نفهم لماذا اهتم مفكرو القرن الثامن عشر ، الى هذه الدرجة ، باميركا . ان بوسع متوحشيها ، الاحرار ، ان يحتلوا دفعة واحـدة هذا المكان الفارغ حتى الآن او الاسطوري ، الذي هو الأصل .

والآن بعد ان عثر المتوحشون على مكانهم في النظام الكوني سيصبح بوسعنا دراستهم ؛ وبهذه النظرة الجديدة سنتأملهم . ذلك انه سيصبح بوسعنا اخيراً ان نلاحظ . ان المتوحشين هم الذين سيجعلون المعرفـة

حول طبيعة الانسان ممكنة ، انها تلك المعرفة التي لم يستطع ان يقدمها لا التمثال الذي تخيله كونديلاك ، ولا حالات دراسة الاطفال المتوحشين . لقد اوضح ذلك دي جيراندو de Gérando في بحث قدّم عام 1796 (نُشر بعد سنة) الى « جمعية دارسي الانسان » (Société des Observateurs de L'Homme) (15) . واخيراً بعد ان اعترف عصر الانوار « بان الطبيعة هي السيد الفعلي » انتهى عصر النظريات التافهة ، وصار بوسع علم الانسان ان يتكون ، وسيكون « علم الطبيعة ، علم الملاحظة ، ومن اشرف العلوم » . عرض دي جيراندو تأملاته امام الجمعية بمناسبة سفر الرحالتين القريب (النقيب بودين Baudin الذي يذهب لاكتشاف البحار والمواطن ليڤايان Levaillant الذي يحضّر رحلته الثالثة داخل افريقيا) ، ولكنها تأملات تصح على جميع الحالات : المقصود معرفة ماذا نلاحظ وكيف ، واعداد الرحالة ليكون فيلسوفاً . يوضح ذلك التنبيه الذي يفتتح الخطاب : « اردنا التحسب لكل الفرضيات . . . وان تكون هذه التأملات قابلة للتطبيق على جميع الامم التي تختلف باشكالها الاخلاقية والسياسية عن امم اوروبا . لقد بذلنا جهدنا خاصة من اجل تقديم اطار كامل من شأنه ان يجمع كل وجهات النظر التي يمكن للفيلسوف ان ينظر من خلالها الى هذه الامم . ذلك اننا لا نمتلك حتى الآن إلاّ « روايات عادية » قام بها رحالة هم اكثر اهتماماً بما يثير الحواس من اهتمامهم بما يتوجه الى العقل ، واكثر تلهفاً الى اكتشاف اشياء جديدة ايضاً ، من تلهفهم الى التوقف لتحليل ما

(15) De GERANDO: Considérations sur les diverses méthodes à suivre dans l'observation des peuples sauvages.

جميع الاستشهادات اللاحقة مأخوذة من هذا المؤلف .

اكتشفوه . ان رواياتهم اذن ناقصة ، وغير صحيحة وجزئية ومدعاة للشك ، وتم جمعها بدون نقد وترتيب . « لم يكن هؤلاء الرحالة قد فهموا كفاية انه يوجد بين المعلومات التي نجمعها حول الدولة وخاصية الامم ، ارتباط طبيعي وضروري لصحة هذه المعلومات » . هذا هو الارتباط الذي بذل دي جيراندو جهده ليقدمه (من خلال تأملاته التي يقر اليوم بكثير منها الاتنولوجي المعاصر) ، ونرى فيها ، بلاغة عصر ، من خلال عمل عقل كلي ـ القدرة ، يهتم باعادة صياغة عالم المتوحشين العقلي . ولان علم الانسان يستهدف ، اساساً ، عالم الافكار ـ ولان الرحلة في المكان رحلة في الماضي ـ تستطيع ملاحظة المتوحشين ارساء اصل هذه الافكار ونشوئها على اسس ثابتة . ان فلسفة الرحالة هي فلسفة كونديلاك . « ليست افكارنا إلاّ احاسيسنا المبلورة » ، ونعرف ان الاحاسيس تتبلور بطريقتين ، بالدمج وبالتجريد ، يكفي اذن ان نعمل بانسجام مع هذه الطريقة المزدوجة « لنكتشف بدقة مدى اتساع دائرة الافكار التي تعود الى الفرد المتوحش » .

تعني دراسة الانسان البدء بتجريده من « كل الظروف المتنوعة » التي تستطيع تغييره : التربية ، الرأي العام ، التقاليد ، المؤسسات السياسية ، والخ ، ومن كثير من الاشكال الاضافية ، كما يقول دي جيراندو . تعني دراسة المتوحش ، الامتناع ، بداية ، عن رؤية الحالات الخاصة التي يُعتمد انها حالات خارجية عن العقل الكوني (او عن الطبيعة) ، والتي يُحكم عليها بالتالي ، بوصفها لا معنى لها بحد ذاتها ، وغير قابلة تماماً للادراك والتفكير . ان العلم الذي يجب باسم كلياته أدانة النظرة التي يسميها غريبة ، اي التي تنظر الى المتوحش كمخلوق غريب ببساطة ، يؤسس عن الآخرين خطاباً « علمياً » للمرة

الاولى ، وهو خطاب مركزي - اتني بالتأكيد . لن تفعل الكليات ، فيما بعد ، إلاّ تغيير ذاتها .

المراجع

Buffon: De l'Homme, Maspéro, 1971
Charlevoix: Histoire du Paraguay, Paris, 1756
Chinard: L'Amérique et le rêve exotique dans la littérature française aux XVIIe et XIIIe siècles, Paris, 1914

Diderot: Supplèment au voyage de Bougainville, in Œuvres complètes, la pléiade.
Erhard: L'idée de nature en France dans la première moitié du XVIIIe siècle, Chambery, 1963.
De Gérando: Considérations sur les diverses méthodes à suivre dans l'observation des peuples sauvages, Paris, 1797.
Gilij: Ensayo de historia americana, Caracas, 1965.
Gumilla: El Orinoco ilustrado y defendido, Caracas, 1963.
Lafitau: Mœurs des sauvages américains..., Paris, 1724.
Montaigne: Essais, la pléiade.
Raynal: Histoire philosophique et politique des etablissements et du commerce européen.., 1780
Rousseau: Discours sur les sciences et les arts, Discours sur l'origine et sur les fondements de l'inégalite..., Essai sur les langues, in œuvres complètes, la pléiade.
Voltaire: Essai sur les Mœurs..., nouvelle edition , 1878.

2 ـ ايديولوجيات الاقليم

بقلم : ميشيل كورنيان

وموريس رونيه

قال بونابـرت : « تكمـن سياسـة الدولـة في جغرافيتهـا » . صار الاقليم ، وهو في الواقع فكرة جديدة في اوروبا القرن الثامن عشر ، الصورة المركزية لسلوك وخطابات السلطة .

لـم يكن يُدرَك المكان في العصر الاقطاعـي إلاّ من خلال صورة المجال انه تجميع للمجالات . هناك اولاً المجـالات السماوية ، حيث يتحـكم الله مولى وسيد القلعـة السماوية ، في نظـام من الدوائـر المتـراكزة[1] ، بثـلاث فئـات من الاتبـاع ، الملائـكة والكهنـة والعلمانيين[2] . ثم تأتي المجالات الجغـرافية ـ الـدينية ، حيث تُقسـم

---

(1) هكذا نُميز سبع دوائر في القرن الثامن : الهواء ، الأثير ، جبل الاولب ، المكان المشتعل ، سماء النجوم ، سماء الملائكة ، سماء الثالوث . لقد تنصر هذا الارث اليوناني ، في القـرن الثاني عشر : السماء الجسدية هي تلك التي نراها . والسماء الروحية التي تسكنها الجواهر الروحية ، السماء الفكرية حيث يتأمل الطوباويون مباشرة الثالـوث الاقـدس . راجـع : LE GOFF: Civilisation de l'occident médiéval .

(2) يُسـمى الخالق خالقاً بالنسبة الى مخلوقاته ، كما يُسمى السيد سيداً بالنسبـة الى عبيده » (هـذا الكلام للقديس اوغسطينوس ذكرهLE GOFF ، في المرجع السابق) .

الارض الى ثلاث قارات متطابقة مع المناطق الدينية . تتطابق اوروبا تقريباً مع المسيحية ، وتكون الاثنتان خاضعتين لسلطة البابا . واخيراً هناك مجالات الاسياد الاقطاعيين التي هي بمثابة توزيع للاقطاعات ، للاقطاعات الصغيرة والممنوحة ، وبمثابة ممارسة لحق المولى باستدعاء الاتباع .

هكذا تُحدَّد المجالات السماوية والجغرافية ـ الدينية والاقطاعية بوصفها حقول سلطة . يؤدي تقسيم السلطات وتشابكها العمودي الى تفريد ذري . في دوائر وسلطات محدودة .

وهكذا لم تتكون المملكة (وفي شمالي ايطاليا الدولة الاقليمية) إلاَّ من خلال اعادة تقسيم السلطة ، وفي نفس الوقت ، اعادة توزيع « المجالات » . يجابه العصر الحديث التجزئة الاقطاعية بجهد التوحيد ، بتوحيد اساسي يتم من خلال صورة الامير . يشكل الامير بالنسبة للاقليم دور الشكل بالنسبة للمضمون(3) . وتربط بين الامير وبلده علاقة مثنى بحيث يكون الواحد قادراً على ان يعكس الآخر :

---

(3) « ان الشكل الخاص (بالمملكة) هو الكرامة الملكية ، وهو الذي يعطي للامارة تسميتها مملكة ؛ ينجم مضمون المملكة وايّة امارة ، بل اية دولة جمهورية ، عن عدة عناصر ، وبالطبع عن تجمع الناس . . . وعن وجود القضاء ، والسلطة . . . وعن الارض التي تقدم للسكان الغذاء وباقي الحاجات والمتع ؛ وانطلاقاً من وجود هذين النوعين من العناصر ، الشكل والمضمون بالتأكيد ، ولقدر ما هما ضروريان ، نقدر ان المملكة موجودة . . . فلو الغينا الارض التي تقدم الغذاء ، لتمكنا من اقامة مملكة الارواح الهوائية ، ولكننا لن نستطيع ابداً اقامة مملكة بشرية » . (Cité en Latin par Léon-Pierre RAYBAUD: «La Royauté dans les œuvres de Matteo Zampini in le prince dans la France des XVIe et XVIIe siècle; repris par j. Y. GUIOMAR dans l'idéologie nationale.)

يكون الاقليم امتداداً وتوسعاً لجسم الامير[4] .

لن يفعل العصر الحديث شيئاً اللهم إلاَّ ألغاء طرف من طرفي المثنى : الملك . يصبح الاقليم المرجع الاولي . ان المقولة الايديولوجية (idéologème) ، الامة ، هي محاولة دائمة لتفكير تزامن ولادة نمط الانتاج الرأسمالي ، والدولة والحرب الحديثين . ويتم الانتقال من نظرية دراسة الاراضي Topologie الحكومية (المجزأة) الى دراسة امكنة (Toposcopie) سلطة السلالات الحاكمة (القادرة على ان تعكس مدى اتساع مجال سلطتها) واخيراً الى طبوغرافيا اقليمية (موحِّدة) . قد يمكن الكلام عن الجيوسياسات بمعنى التعامل مع المكان ، مشيرين بذلك الى ان الممارسة المتعلقة بالمكان وتصوره يلعبان دورهما . وتكون الحدود بين الستراتيجيات والايديولوجيات الاقليمية مبهمة . ولا يتم التطرق الى هذه الحدود الا من زاوية وجهة نظر الوثيقة التي نتناولها . اننا نُبرز الايديولوجيات او الستراتيجيات ، حسبما نكون ندرس الخطابات ، والمؤلفات والتصورات او المراسيم والقرارات والمعارك . فهما تعرضان نفسيهما كنماذج وتصورات وحجج وتتبادلانها . وفي معرض اثبات شرعية ما ، يعرض نفسه للقراءة مشروع ما اومرتسم ما . ان « الامة » هي التي تعرض ، على المستوى الرمزي ، الحركة المثلثة التي تؤدي الى السوق والحدود والدولة .

وفي المزدوجة الاقليم ـ الامير تأخذ الامة مكان الامير . تنجم عن هذا الاستبدال مجموعة من الاسئلة : مَن ينتمي الى مَن ؟ مَن هو

---

(4) راجع حول كل ذلك : J.. Y. GUIOMAR: L'idéologie nationale, Champ Libre, Paris 1972.

الاول ؟ مَن يحدد ؟ الامة ام الطوبوغرافيا ؟

ان هذه الاسئلة التي تلازم القرن التاسع عشر تطرح كمسلمة تطابقاً ضرورياً بين الامة وارضها ولكنه تطابق مقاربٌ . ونادراً ما خضع للمناقشة التحديد النهائي لمركز الاقليم او الامة . بيد ان نطاق توسعه هو الذي كان دوماً موضع تساؤل . ولقد عرف هذا التساؤل ، حتى الآن ، ثلاثة اجوبة : الحدود الطبيعية ، الحدود الموعودة ، الحدود الحيوية . انها اجوبة ظرفية ، وتتعلق بالسجلات الادارية في نفس الوقت . ومع انها تكونت في ظرف خاص ، فانها تجمدت كنموذج ، وعملت على بناء الخطابات المقبلة . سنعمل هنا ، من خلال نفس المواد - الخرائط ، اسماء المواقع ، المناظر الطبيعية - على دراسة ثلاثة أمثلة : فرنسا 1792-1793 ، الولايات - المتحدة 1763-1787 ، المانيا 1873-1933 .

[فرنسا 1792 - 1793 : الاقليم الطبيعي]

ليس من المبالغة القول ان الثوريين يوحدون الاقليم : يجعلون منه واحداً ، وواحداً جديداً . وليس من المبالغة القول انهم اعطوا للفرنسيين وعيهم انهم فرنسيون : لقد صنعوا مجالاً من التصور يتجمد في اسم فرنسا . انهم يعيدون تكوين المجال ، الحقيقي والخيالي ، باعادة توزيعهم للسلطة ، وخصائصها المادية والرمزية . يجب ان يقابل السلطة الموحِّدة التي يصممها واضعو الدستور ، اي سلطة المالكين ، كيان اقليمي « وحيد وغير قابل للتجزئة » . ففي فرنسا نهاية القرن الثامن عشر ، المتميزة بالافكار الفيزيوقراطية التي تكون الارض ، بنظرها ، هي المنتج الوحيد للثروات ، وفي فرنسا ذات الاولوية

الريفية ، حيث يمتلك كل تاجر وصناعي ثروات عقارية ، لم يكن بوسع النموذج المرجعي ان لا يكون ارضياً . تساءل فولتير في قاموسه الفلسفي : « ما هو الوطن ؟ أليس ، بالصدفة ، حقلاً خصباً يمكن لصاحبه ، الذي يقيم بشكل مريح في منزل جيد البناء ، ان يقول : « ان هذا الحقل الذي ازرعه وهذا البيت الذي بنيته هُما لي . . . انا جزء من الكل ، جزء من المتحد ، جزء من المملكة . ها هو وطني » . هكذا يعرض نفسه البرنامج الثوري - الايديولوجي والستراتيجي - مع كل التباساته وهي في حالة جنينية . كان يتم التفكير بالامة وكأنها اقليم هائل ؛ انها بالنسبة للاقليم ما هو المالك بالنسبة للحقل .

يُقابل تعددية انظمة الملكية الموروثة عن الاقطاعية نظام وحيد للملكية قائم على التنمية . وهي وحدها تعطي الحق بممارسة السلطة السياسية . هكذا يتم تحديد الاقليم وكذلك الملكية ، بوصفها سيادة ، غير قابلة للاستلاب ، على مساحة متجانسة ومسيَّجة .

قبل ان تنتهي الغبطة في 4 آب 1789 كانت قد أُقرت حرية التنقل الداخلي : لقد ادت عمليات الغاء المراقبة ، والمكوس والجمارك الداخلية ، وانهيار الحواجز ، ودخول قوات اجنبية الى المقاطعات ، الى مطابقة الخط الجمركي مع الحدود السياسية . هكذا نشأت الحدود . . . ولم يكن الامر يتعلق حتى الآن إلاّ باقامة حمائية معتدلة .

ثم تطلّب الامر ، فيما بعد ، ادارة هذه المملكة « الموزعة على عدد من الاقسام المختلفة يساوي عدد شتى انواع الانظمة او السلطات : الى ابرشيات من حيث العلاقة الاكليريكية ، والى حكومات من حيث العلاقة العسكرية ، والى مناطق مالية من حيث العلاقة الادارية ، والى

محاكم من حيث العلاقة القضائية »(5) . ان التقسيم الاداري سيقلب هذا التكديس للدوائر ، وهذا التشابك في السلطات.هذه الفسيفساء في البلد والمقاطعات ـ كان الملك دوقاً في منطقة برتاني ، وكونتاً في البروفنس ، وملكاً في ناڤار . وكان توريهThouret قد اقترح ، بعد سييسSieyès ، مخطط تقسيم هندسي : 80 مقاطعة (بالاضافة الى باريس) كل منها من320 فرسخاً مربعاً ، ومقسمة على خمس بلديات من36 فرسخاً مربعاً (6) . عارض ميرابو هذا « التقسيم الرياضي ، شبه المثالي ، والذي يبدو أن تنفيذه غير قابل للتطبيق » . واقترح تقسيماً « مادياً ، ويتعلق ، بحكم الواقع ، بالنواحي وبالظروف ، . . . ويكون مرغوباً فيه ايضاً من قبل جميع المقاطعات ، وقائماً على علاقات معترف بها سابقاً »(7) . يجب الاّ نحتفظ بذرائعية واضعي الدستور بقدر ما يجب الاحتفاظ بمشروع توحيد هندسي(8) ، ومطابق للطبيعة في نفس الوقت ، كانت هناك الحدود الطبيعية ، في

---

(5) تقرير توريه باسم لجنة الدستور ، بتاريخ29 ايلول1789 .

(6) ثم اخذ توريه بمشاريع قدمها عام1779 ليتروسنLetrosne . كان الجغرافي دي هيسيلنHesseln قد نشر خريطة لفرنسا تميز تسع مناطق ، 81 بقعة ، في العام1780 . وكان سييس قد نشر ، في العام1788 ، دراسة حول تقسيم فرنسا .

(7) ذكره : SOBOUL: Histoire de la révolution française .

(8) بحث الثوريون الذين يواجههم الارث الملكي والاقطاعي ، عن حلول اقليمية . يمكن ذكر اصلاح النظام المتري . ومن اجل تسهيل المبادلات ، استُبدل تنوع انظمة القياس بنظام وحيد وعقلاني للقياسات : القدم (33 سنتم) ، البنتة (0,568 ليتر) الحبة (0,053 غ) ، . . . ولكن انطلاقاً من ماذا يمكن وضع نظام موحد ؟ سيتم الانطلاق من الاقليم ، بالتحديد ، وسيُحدد المتر على انه واحد من مليون من المسافة الممتدة من القطب الى خط الاستواء ، والليتر على انه دسم3 ، والغرام بوصفه وزن سم3 من الماء المقطرة ، والآر بوصفه100 م2 ، والستير بوصفه م3 .

السابق . ستأخذ اللجان التي سترسم الخريطة الجديدة ، في الواقع ، اعتباراً اكبر للمنافسات المدينية والاسواق المحلية . وهكذا محا جهد التسمية ، الذي اعطى للمقاطعات الثلاث والثمانين اسماء انهار او جبال ، آثار العهد البائد ذات الدلائل الجغرافية ، ولكنه الغى في نفس الوقت المصالح المادية التي نظمت التجزئة . وعندما صارت المملكة ملكاً شخصياً للملك ، وعندما صارت وحدة المملكة يُعبِّر عنها في شخصه ـ الدولة هي انا ـ صار من غير المجدي ان يعرف المواطنون مظهر البلد . كانت صور الملك وحدها متداولة . كان المهم انسجام جسمه الذي لا يستطيع الاقليم ان يعكسه إلاَّ بشكل غير كامل : قطبية فرنسا ونافار ، عوائق اجنبية ، حدود غير ثابتة في الشرق بين فرنسا والامبراطورية بفعل لعبة السيادات الاقطاعية . حطم واضعو الدستور المرآة التي كان يعكس فيها الامير والاقليم صورهما ، وحثوا على خلق مجموعة ايقونات ـ جغرافية ، ونشروا الخريطة الجديدة لفرنسا ودعوا الوطن الشاب الى تأمل نفسه فيها . ليس الاقليم جسد الملك المتوسع ، بل جسد الامة . ولا تعني فرنسا ابداً الملك ، (الذي سمي لوقت قصير ملك الفرنسيين) بل الامة نفسها .

كانت طريقة واضعي الدستور مسحية : عُدلتِ البنية الملكية للدولة ، وعوائق تداول السلع باعادة سبك « خرائطية » (9) . كان اصلاح الدولة ، ولا سيما النزاعات السياسية ، يتناول عقوبات اقليمية ، هكذا مرَّ النزاع مع الكنيسة بالغاء الاسقفيات ، ورفض

---

(9) « ان الدول هي ، بالنسبة للامة ، ما تمثله الخريطة المصغرة بالنسبة لمساحتها المادية ؛ يجب ان تكون نسختها المصورة ، دوماً ، سواء كانت جزئية او كلية ، ذات نفس النسب كالخريطة الاصلية » (MIRABEAU: Lettres de cachet) .

التقاضي الاسقفي الاجنبي ، وباخضاع الخريطة الاكليريكية الى الخريطة الادارية . ان متحداً بكامله تمزق في تجذره المادي . كما ان الرهبان الذين ارادوا مصالحة الملك (رأس السلطة التنفيذية) مع الامة (السلطة التشريعية) اسسوا هاتين السلطتين على نفس الاطار الاقليمي الوحيد : المقاطعة . يقضي منطق النزاعات على العلاقة الدستورية بين التنفيذي والتشريعي ، ويقضي على دعامتهما الاقليمية التي لم تلعب اي دور إلا في تحصيل الضرائب .

« يجب ان تكون فرنسا كلاً غير قابل للتجزئة . يجب ان يكون لها وحدة تمثيلية . يريد سكان مرسيليا وضع ايديهم بايدي سكان دنكركDunkerque » . وباسم هذا المبدأ الذي اعلنه دانتون(10) ، يقترح جيروندين بوزوGirondin Buzot جمع حرس مشكل من مندوبين عن المقاطعات في باريس . « ليست هذه الرابطة الرائعة (الجمهورية) منحصرة في حدود اقليم صغير : انها واحدة ، غير قابلة للتجزئة ، وهي لكل مساحة فرنسا . . . واذا كان المبدأ (. . .) هاماً وضرورياً ، فهو كذلك لباريس اساساً »(11) . ان موضوع الرهان هنا هو موقع باريس في السياق الثوري . « يجب تصغير اهمية باريس الى $8\frac{1}{3}$ من التأثير ، شأنها في ذلك شأن كل من باقي المقاطعات »(12) . باريس مركز الجمعية التشريعيةوقلعة للمبادرة الشعبية ، باريس

---

(10) جلسة عاصفة في25 ايلول1792 . تجابه الجيروندبون والجبليون حول مسألة الكومونة الناشئة من10 آب . سحب مارات Marat مسدساً وسدده الى صدغه مهدداً بالانتحار اذا لم يسحب حزب الجيروند اتهاماته . تكلم دانتون ، واعلن مبدأ عدم قابلية التقسيم ، واعيد الاجماع .

(11) 8 تشرين الاول1792 .

(12) لازورس Lasource ، نائب تارن Tarn في25 ايلول .

محروسة الابواب بعناية في ظل سلطة البلدية . وفي25 ايلول ، ومن ثم 8 تشرين الاول ، تم ، بشكل اسطوري ، تحاشي المواجهة بين الجيرونديين الذين يستندون الى سكان المقاطعات وبين الجبليين الذين يستندون الى اللامتسرولين * ، وذلك باعلان وحدة الجمهورية وعدم قابليتها للتقسيم(13) . يجب ان تتحقق وحدة التمثيل التي تجسد وحدة الامة في وحدة الاقليم . لقد اكدت تمامية الاقليم بشكل رمزي اعادة الصاق الاجزاء ، والقضاء الوهمي على التوترات والمساومات السياسية(14) .

الا انه يجب ان تكون الجمهورية مسيحية حتى تكون واحدة بشكل كامل تماماً . ولكن هل تستطيع الثورة التي ترفض جميع العوائق الموروثة عن العهد البائد ، ان تتسامح ازاء هذه التعرجات التعسفية ، هذه المساحة المثقوبة ، وهذا التخطيط للسلالات الحاكمة ؟ ولكن اين يجب وضع الحدود ؟ وسرعان ما يكون الانغلاق والتوسع غير قابلين للفصل بينهما ، ذلك ان الاقليم يتكون دوماً على حساب الآخر ، اي ضد الآخر ، فأين يجب التوقف اذن ؟

ان الحرب هي التي ستحسم الامر . كان الجيرونديون يريدون الحرب منذ العام1791 . وبعد ان توجهت ، في البداية ، ضد

(*) اللامتسرولون(Les sans-eulottes) : الاسم الذي عُرف به الثوار الجمهوريون في فرنسا1792 . كانت عامة الشعب ترتدي البنطالPantalon ، بينما ترتدي الارستقراطية السروالCulotte . (المترجم) .

(13) المرجع السابق : J- Y. GUIONAR .

(14) لا يسعنا إلاّ ان نشير هنا الى ان تعيين الاحزاب هنا هو جغرافي ، وصفي بالنسبة لحزب الجيروند (اصل رؤسائه من بوردو) ، او مجازي بالنسبة للجبل والسهل والمستنقع .

الملكيات ، فانها سرعان ما تحولت باتجاه انكلترا الخصم الاساسي الصناعي والتجاري . وكشفت الحرب ، بوصفها مصدراً للمكاسب ، عن الطموحات التي اطلقها التحرر من العوائق الاقطاعية . كان « الاجنبي » حتى العام1792 ، هو السلوك غير الوطني : الخيانة ، التآمر ، الهجرة . ومع اندلاع الحرب صار « الاجنبي » الحكومات ، ثم الدول ، ثم الشعوب . هكذا توجب على الثورة ان تترسخ على اقليم الآخر . لم يسمع احد روبسبير عندما اعلن ان مركز الشر في باريس وليس في كوبلينس *Coblence . « أليس هناك اذن اية علاقة بين كوبلينس ومكان آخر غير بعيد عنا ؟ »(15) . كان الجيرونديون يأملون من الحرب حصر النزاع ضمن الحدود .

اشارت الهزائم الاولى الى ان الدفاع عن امن البلاد يتم في بلجيكا وعلى الرين . بل ان بعض الجيرونديين تصور التراجع الى جنوبي اللوار . و « صار العدو على الابواب » عند سقوط فردانVerdun آخر معقل قبل باريس . وبعد موقعة ڤالمي ببضعة اسابيع وصلت الجيوش الجمهورية الى الرين والألب . وطلب سكان منطقة نيس وساڤوا وريناني ، انضمامهم الى الجمهورية . حينذاك افتُتح نزاع الالحاق .

كان دستور1791 قد اعلن ان « الامة الفرنسية تمتنع عن القيام باية حرب من اجل التوسع ،ولن تستخدم قواها ابداً ضد حرية اي شعب ». غير ان ثمة لاجئين سياسيين ، من باربانBarban وبلدان

(*) في المانيا الغربية . شكل فيها المهاجرون الفرنسيون عام1793 جيش كوندةCondé (المترجم) .

(15) 2 كانون الثاني1792 ، لليعاقبة .

ليبج Liège وسويسرا ورينانيا ، التفوا حول الجيرونديين . « انه ما يميز جميع هؤلاء الرجال هو انهم وصلوا الى فرنسا مع قناعة حاسمة بان الثورة في هذا البلد ، وهو من اقوى بلدان القارة ، هي وحدها التي تُمكن بلدهم من التخلص من المستبدين »(16) . وتبنوا المواطنية العالمية التي ترجع الى عصر الانوار . وكانت لجنة من الاجانب بقيادة أناشارسيس كلوتز Anarcharsis Cloots تمثل ، منذ عيد الاتحاد الفيدرالي عام 1790 ، « الجنس الانساني » . وكشف تطويع الجنود الاجانب الفارين ومنح الجنسية النرنسية الى « فلاسفة الامم الاجنبية الذين خدموا قضية الحرية » حيوية المسألة الكونية ، وجعل اناشارسيس كلوتز من نفسه الناطق باسم هذه المسألة : « ان اول شعب مجاور يتحد معنا سيعطينا اشارة الكونفدرالية الكونية . سنجد في الامة الوحيدة افضل حكم ممكن باقل التكاليف الممكنة . وسيسألنا البشر المتحررون من قيودهم النُصح ؛ وسنحولهم عن اتحاد الجماهير الفدرالي وغير الثابت بحثهم على اتحاد الافراد الفدرالي الملائم . لا يوجد هناك إلا محيطاً واحداً ، ولن تكون هناك إلا امة واحدة . »(17) . يمكن ان نقرأ في هذا الاعلان عن الرأي السياسي استيهام سوق رأسمالية متخلصة من كل العقبات ، ونزعة للتبادل الحر المعمم : « سينسى العالم المقسم الى الف منطقة متساوية التسميات القديمة والنزاعات القومية » . (18) . سوق كونية ، ولكنها مستقطبة حول فرنسا : « يجعل الضلال جميع المسلمين يسجدون باتجاه مكة . ولكن الحقيقة سترفع جباه جميع الناس

---

(16) 9 ايلول 1792 ، مديح غوتنبورغ (Eloge de Gutenberg) .

(17) المرجع السابق .

(18) المرجع السابق .

الشاخصين بعيونهم نحو باريس »[19] . هكذا أعدت قبل عشية موقعة قالمي مسائل الحرب الدعائية : اذا كان الهدف هو الجمهورية الكونية ، فان فرنسا هي نواتها[20] . وفي 19 تشرين الثاني 1792 اعلنت الجمعية الوطنية : « انها ستقدم الاخوة والدعم لكل الشعوب التي تريد استرجاع حريتها »[21] .

عندما عبّرت بعثة من سكان منطقة سافوا عن « امنيتها بالاتحاد مع الجمهورية الفرنسية اتحاداً لا انفصام فيه ، وليس مجرد تحالف » ، استطاع غريغوار أن يجيب : « سكان سافوا المحترمون ، سبق ان قلتم لا ، وفجأة حلقت الحرية التي وسعت افقها فوق جبالكم ، ومنذ ذلك الوقت دخلتم ايضاً الى الكون »[22] . ثمة انزلاق تاريخي يمكن كشفه : تسمية سكان سافوا بانهم الشعوب الوبروج Allabroges ، باسم القبيلة الغالية التي كانت تقيم في هذه المنطقة . وهكذا استرجعت فرنسا امتدادها الاصلي الذي فصل فيما بينه الملوك . بيد ان الحجة الجغرافية هي التي تسود في تقرير غريغوار : « لقد ارادوا ، فعلاً ، في بيمون Piémont ضم سافوا . ولكن جبال الالب كانت تدفع دائماً بها الى مجالات فرنسا ، ولو ان الحكم فيهما (فرنسا وسافوا) لم يكن مماثلاً لكان ذلك معارضاً لنظام الطبيعة . . ان فرنسا كل يكتفي بذاته ، ذلك

---

(19) المرجع السابق .

(20) كان رجل القانون فرانسوا هوتومان François Hotoman اشار في (Franco Gallio) ، في العام 1573 ، الى ان « من كانوا اول من عمل لاستعادة الحرية يسمون فرنجة Francs : مما يعني القول ايضاً انهم احرار وخارج العبودية : وبهذه الوسيلة تفرض عليهم المناسبة الراهنة اسم الفرنسيين » . استشهاد مذكور في: J. Y. GUIOMAK ، مرجع سابق .

(21) بناءً لاقتراح من غريغوار Grégoire .

(22) 21 تشرين الثاني 1792 .

ان الطبيعة منحتها من جميع الجهات حدوداً توفر عليها الزيادة في المساحة ، بحيث ان مصالحنا متوافقة مع مبادئنا »[23]. هكذا تم الانتقال من الجمهورية الكونية الى الجمهورية الاقليمية المحددة المعالم بشكل طبيعي ، وفي 11 كانون الثاني 1793 يستعيد نواب نيس نفس الحجة : « ان الفوائد التي تقدمها هذه المدينة الجديدة الى الجمهورية الفرنسية ، كثمن لاتحادها ، هي فوائد خط فاصل يبدو ان الطبيعة نفسها رسمته بسلسلة من الجبال يبدو انها صُنعت خصيصاً لتفصل فرنسا عن ايطاليا » . وفي اليوم التالي اضاف دانتون ، وهو يطالب بضم بلجيكا : « ان الطبيعة هي التي رسمت حدود فرنسا . وسنبلغ هذه الحدود في الجهات الاربع ، في المحيط والرين والالب والبيرينيه »[24] .

ان الموقف الدفاعي هو الذي يتضح خلف هذا التطبيع للحدود . فمن حرب التوسع ـ الهجومية ـ يتم الانتقال الى الاحتفاظ بالمكاسب . وتم التراجع عن اعلان 1791 السخي : اعلنت الجمعية في 13 نيسان « انها لن تتدخل ، بأي شكل ، في سلطة الدول الاخرى » ، بل انها « ستتوارى بالاحرى خلف ما لحقها من دمار بدل من ان تعاني من تدخل دولة اجنبية اخرى في النظام الداخلي للجمهورية »[25] .

---

(23) تقرير غريغوار ، في 27 تشرين الثاني 1792 « حول مسألة ضم سافوا الى فرنسا .

(24) 13 كانون الثاني 1793 .

(25) كان دانتون قد دعم ، بهذا الشكل ، التخلي عن الحرب الثورية : « اصدرتم ، في لحظة حماس ، مرسوماً كان دافعه نبيلاً بدون شك ، اذ انكم الزمتم انفسكم بتقديم الحماية للشعوب التي تريد مقاومة قمع طغاتها . يبدو ان هذا المرسوم يزجكم في دعم بعض الوطنيين الذين كانوا يريدون اقامة الثورة في الصين . يجب ، قبل كل شيء ، التفكير بالاحتفاظ بنظامنا السياسي وتأسيس العظمة الفرنسية » (13 نيسان 1793) .

ليس المقصود تحصين الجمهورية الكونية ، بل اقليم معين بالاستناد الى حواجز طبوغرافية : خط الذُرى والممرات الالبية ، حيث يصعب المسير الطويل ونقل المدفعية ولا سيما الثقيلة منها ، نظام دفاعي يطبق على الرين مغطياً الحوض الباريسي وباريس ، ويمتد على مروحة من الانهار ، هي اليونYonne والأوبAube والمارن والأيسن والواز .

« لنترك الى الفلاسفة ، لنترك لهم عناء تحليل الانسانية من جميع علاقاتها : نحن لسنا ممثلي الجنس البشري . اريد اذن ان ينسى المشترع الفرنسي ، للحظة ، الكون ، ليهتم ببلده ؛ اريد هذا النوع من الانانية القومية التي نخون واجباتنا ان لم نتحلّ بها . . . احب جميع الناس ؛ واحب بشكل خاص جميع الناس الاحرار ، ولكني احب الناس الاحرار في فرنسا اكثر من باقي ابناء الكون »(26) . ان داعي المصلحة العليا للدولة هو الذي ينتصر من خلال مبدأ الحدود الطبيعية .

[الاقليم الموعود]

« قدرنا أمركة العالم » ، هكذا يُعلن تيودور روزفلت ، عام1898 ، التحديد المزدوج في الخطاب الاميركي الحامل لخلاص البشرية والامبراطوري . يقرن هذا « البيان القدري »(manifest destiny) . نظرية لاهوتية توسعية باستراتيجية كونية مقصودة ، وهما مسألتان مترسختان بصلابة في الوعي الاميركي من خلال المقولة الايديولوجية الارض / الاقليم الموعود (ة) .

تكشف المراجعة الدقيقة لتكوين هذا الخطاب الاميركي كيف انه

---

(26) روبير ، 26 نيسان1793 .

كان موجوداً سابقاً حتى قبل اعلان الاستقلال[27] . فكل شيء يجري كما لو ان سلسلة من الاحداث المنطبقة ، ما بين 1761, 1776 ، كانت تتصور مسبقاً الاحداث المادية ، الفتوحات او عمليات السيطرة .

غداة حرب السنوات السبع اكد التاج البريطاني سيادته مجدداً ، بعد ان ضاعف من مساحة ممتلكاته في اميركا الشمالية ، وزاد من قيمة الرسوم ، وعزز سيطرته التجارية على مستعمرات الساحل الشرقي . الا ان المستعمرات التي بلغت مستوى معيناً من التطور الاقتصادي والمهتمة باستقلالها الذاتي صدمها ، بشكل خاص ، الاعلان الملكي لعام 1763 الذي يفرض حواجز اليغاني Alleghany كحد لتوسع الرواد ويخصص غربي الأبالاش Appalaches الى القبائل الهندية . وكان جيفرسون قد اتهم الملوك البريطانيين بانهم يقسمون بلداً يشكل كلاً متماسكاً[28] . وكانت كندا التي كان المعمرون قد ساهموا بتغلبها على فرنسا ، قد حصلت على نظام خاص بفعل قانون كيبك Québec ، عام 1773 . كهذا كان النزاع مع التاج البريطاني يدور ، منذ 1763 ، حول رهان صريح هو الحدود .

[الاقليم والملكية : الحجة القانونية]

سرعان ما تشابكت المطالبة الاقليمية بالانفصال ، ليعمل الاثنان على بروز مسألة الملكية : لا يمكن لهذا الاقليم ان يكون للانكليز ، ذلك

---

(27) استمدينا الكثير من مؤلف : E. MARIENSTRAS: Les Mythes fondateurs de la nation américaine الذي يتناول هذه الاساطير من وجهة نظر مختلفة تماماً .

(28) (Mémoir contre les abus de la Couronne) : « لقد فلك الامراء هذا البلد عدة مرات ، ووزعوه على اتباعهم . » .

« ان اميركا لم تكن يوماً قسماً من مملكة انكلترا.لقد كانت ملك شعب من المتوحشين المنتشرين في كل القارة ، والذين لا يتبعون السيادة البريطانية »(29) . واذا ما قيل للهنود ، بلهجة جيفرسونية بشكل نموذجي ، ان الاميركيين « لا يشكلون جزءاً من الامم القديمة الموجودة فيما بعد النهر الكبير » ، بل متحدون « في عائلة واحدة مع اخوتنا الحمر من هذه الاماكن . . . واننا نقيم نحن واجدادنا هنا منذ زمن طويل بحيث يبدو لنا ان جذورنا مترسخة في هذه الارض »(30) ، فمن الواضح ، في الواقع ، ان البلد ينتمي الى من فتحه وليس الى من يسكنه(31). « لقد فُتحت اميركا وترسخت فيها المستعمرات بشدة بجهود الافراد لا بجهود الدولة البريطانية . لقد بذلوا دماءهم من اجل تأمين الارض لمستعمراتهم . لقد قاتلوا من اجل انفسهم ، ولهم حق الملكية بلا شريك »(32) . هذه ملكية بالدم . وعلاوة على ذلك ، « فانهم اشتروا ، باستقامة ، لدى وصولهم الى هذا العالم الجديد ، الاراضي من الهنود الذين كانوا مالكيها الشرعيين »(33) . وهذه ملكية بالمال . واخيراً ، تنتمي « هذه الصحراء المهجورة وغير المزروعة » الى من « حرث ارض الموات بالكد المتواصل »(34) . وهذه ملكية بالعَرَقْ . وفي

---

(29) R. BLAND: An enquiry into the rights of the British colonies, 1766.

(30) To the chiefs of the Osages, janvier 1806.

(31) يستند انصار الانفصال ، من جهة اخرى ، الى الانكلو ـ ساكسونيين . فان هؤلاء قطعوا اية تبعية ازاء وطنهم او امراء بلادهم الاصلية ، عند مغادرتهم لجرمانيا من اجل الاقامة في بريطانيا العظمى .

(32) JEFFERSON: A summary view of rights British America.

(33) Joseph WARREN: Discours.

(34) المرجع السابق .

الواقع ، لا يستطيع الهنود المطالبة بهذا الاقليم « الذي يطوفون فيه اكثر مما يسكنونه »(35) ، ذلك ان الاقامة تعني الزراعة ، واستثمار الارض .

تغيير المقياس : الحجة الجغرافية .

لا يمكن حسم المسألة في نطاق الحقوق . ولا يمكنها ان تُحسم ، كما هو معروف ، إلاّ بالعنف ، وستُحسم على هذه الشاكلة . الا انه يجب على هذا العنف ايضاً ، ان يحصل على شرعية في عصر العقل : « ان الجزر الصغيرة العاجزة عن حماية نفسها بنفسها هي اشياء ملائمة لسيطرة الممالك . الا انه لمما يخالف العقل الافتراض بانه يجب على قارة ان تُحكم باستمرار من قبل جزيرة »(36) . ولا يمكن للعقل إلاّ ان يكون جغرافياً في هذا الساحل الشرقي الذي تستبد فيه مسألة الحدود . « لم تنر الشمس ابداً قضية كبيرة الى هذا الحد . ليست القضية مدينة او كونتية او مقاطعة او مملكة ، بل قضية قارة ، قضية القسم الثامن من الكرة الارضية . . . ان انكلترا وهولندا والسويد ، اذا ما قورنت ببقية العالم ، وعلى خارطة كبيرة ، هي بمثابة شوارع ومدن وكونتيات ، اما على خارطة صغيرة فهي مجرد تميزات بالغة الصغر مقابل روح قارية »(37) . لا تحتل المستعمرات ، حتى الآن ، إلاّ الاهداب الساحلية ، ولا تصل الى الداخل إلاّ فقط الحملات النادرة ؛ بيد « ان الاوروبي يغير المقياس بسرعة ، منذ وصوله : فكان المئتا ميلاً يبدوان له ، في السابق ، مسافة كبيرة جداً ، ولكنهما الآن امراً تافهاً »(38) .

---

(35) Samuel PURCHAS: Hackluytus Posthumus .

(36) Thomas PAINE: Common Sense. .

(37) المرجع السابق .

(38) CREVECŒUR : Lettres .

تغيير المقياس : تخفيف نسبة الطموحات . يشكل هذا الانتقال المفتاح ، اي نموذج قراءة الاحداث . ان نضوج الانفصال يحمل علامات زحلقة المقياس المتتابعة : انتقالات من مجال مرجعي الى آخر ، اللعب على النِسب وعلى علاقات القوة ، تكبير الخصوم الراهنين او تصغيرهم . ان هذه المنطلقات في الرؤية هي استراتيجية في الواقع : ان المعمرين يفكرون اقليمياً عندما يريدون التفكير سياسياً . ويمكن التمييز بين اربع مراحل ، او اربع حالات لوضع هويتهم « الاقليمية » في مقابل الخصم ، انها اربعة تغييرات للموقع تتطابق مع اربع حالات من وعي الذات ، وهي حالات بمثابة تقويم لميزان القوى .

كان المعمرون يرون أنفسهم ،في البداية ، بمثابة رعايا بريطانيين : « لا يمكن لاحد ان يُسرَّ مثلي من هزيمة كندا ، وليس ذلك لاني معمر فحسب ، بل لاني مواطن بريطاني »(39) . كان النزاع يضع مستعمرة في مواجهة الامبراطورية : انه على الاكثر تمرد مقاطعة ما . وكان يسود ، من جهة اخرى ، شيء من التشوش : كان يُشار الى المعمرين من خلال اسم موقع كل مستعمرة « بنسلفانيا ، جرسي ، وغيرهما من المقاطعات » ، وكانوا ينظرون الى انفسهم بوصفهم في اطراف الامبراطورية .

ومن ثم ترسخ فيما بين المستعمرات ، وفي مواجهة العدو المشترك ، احساس قومي . « ان (المؤلف) المولود في واحدة من هذه المستعمرات ، والمتحدر من اجداد كانوا اول من زرعها ، لا يخجل من الاعتراف بحبه للبلد الذي شهد ولادتَه » (40) . لا يكترث المعمرون

---

(39) BIGELOW: Works .

(40) B. BAYLIN: the sentiments of a British American .

في تسمية انفسهم كولومبيين او اميركيين ، ولكن « المستعمرات تمتد في القارة الاميركية ، متحدة مع بعضها البعض في اقليم واحد »(41) . ولم تعد المواجهة بين مركز واطراف ، بل بين امتين ، واحدة فاسدة وآفلة ، اما الثانية فمزدهرة ومصيرها العظمة .

وفي المرحلة الثالثة تتجابه الأمتان بوصفهما منتميتين ، كل منهما ، الى عالم مختلف ، « ليست هناك اية سابقة في الطبيعة يكون فيها الكوكب التابع اكبر من الكوكب الاصلي ، وبما ان انكلترا واميركا تمثلان ، في علاقتهما الراهنة ، شذوذاً عن النظام الطبيعي للامور ، فمن الجلي انهما تنتميان الى نظامين مختلفين : تنتمي انكلترا الى اوروبا ، اما اميركا فالى نفسها »(42) . ان هذا الانتقال الى المقياس القاري يجابه فيما بين كيانين اخلاقيين : اوروبا المتعجرفة والطاغية ، واميركا المعتدلة والعاملة ، ويجابه فيما بين نصفي الكرة ، الشرق والغرب ، وفيما بين تاريخين ، التاريخ القديم والجديد ، وفيما بين طبيعتين ، واحدة محدودة واخرى سخية(43) .

واخيراً يرى المعمرون انفسهم بمثابة امبراطورية :

هذه الامة الصلبة والهائلة ـ هذه المستعمرات الضخمة ـ سترى قريباً اسطولنا يندفع هنا وهناك ـ في جميع البحار (44) .

---

(41) BLAND : An enquiry into the rights of British Colonies .

(42) مرجع سابق ، Thomas PAINE .

(43) « يجب ان تصبح اميركا ، هذا الاقليم الواسع الذي انعمت عليه الطبيعة بكل حسنات المناخ والتربة والانهار القابلة للملاحة والبحيرات ، بلداً عظيماً ، مزدحماً بالسكان وقوياً ؛ وستستطيع في وقت ، اقل مما يُعتقد عادة ، ان تزعزع القيود التي كُبلت بها ، وربما ستستطيع فرضها بنفسها على مضطهديها السابقين » (Benjamin FRANKLIN, en 1761) .

(44) اغنية من العام 1776 .

« لقد ارسينا اسس امبراطورية جديدة تسمح ايضاً بزيادة حدودها الواسعة ، وبتقديم السعادة الى هذه القارة الشاسعة . لقد جاء دورنا الآن لنفرض نفسنا على وجه الارض وفي حوليات العالم »(45) .

لقد حصل اذن انتقال هو بمثابة قلب للامور . « ان انكلترا اليوم اقوى دولة في العالم . وبعد قليل من **الاصلاح** جاء بعض الرجال الى هذا **العالـم الجـديد** ، من اجـل انقـاذ ايمانهـم . ربمـا سيكون هذا الحادث ، الـذي يبـدو في الظاهـر غـير خطـير ، سبـب انتقـال مركز الامبراطورية الى اميركا »(46) . ان ما يتـم توقعـه هنـا (بشـكل شبـه تنبؤي) هو جعل الامبراطورية البريطانية من الاطراف . انهـا حركة دائرية بشكل نموذجي : « ان الامـيركيين هم مسافـرو الغـرب الـذين ينقلون معهم اكبر كمية من الفنون والعلوم ، الحماس والمثابرة ، التي تجلت لزمن طويل في الشرق : **سيعقدون العقدة الكبرى** »(47) . يتعزز هذا الانتقال التقديري للمركز باختلال مؤقت : ان الكلام يدور الآن حول الهيمنة الاوروبية على الماضي . ان المسألة تتعلق هنا بالثأر الذي « يجب ان يقطع الصلة ، وسيكون بوسع بريطانيا ـ العظمى ان تلعن عنادها المشؤوم . ياللعنصر الزقاقي . يا لأنكلترا الشرسة »(48) .

الارض الموعودة : الحجة اللاهوتية .

رأينـا : للتـو ، كيف ان الانفـكاكات المتتابعـة في المجموعـات

---

(45) David RANSAY: A discourse (1778) .

(46) John ADAMS: Works .

(47) CREVECŒUR: Lettres d'un fermier américain .

(48) Poème de FRENEAU: «the rising glory of America» .

المكانية ـ الامبراطــورية (المستعمــرة / المتروبــول) ، القــومية (المستعمـرات / انكلتـرا) ، القـارية (امـيركا / اوروبـا) واخــيراً الامبراطورية (المتروبول / المستعمرة) ـ قد كانت مندرجة في النظـام الطبيعـي للامـور . وفي الواقـع ، إستُغِـل الموقـع والبعـد الأمـيركيين استغلالاً مفرطاً من قبل نظرية لاهوتية ترسـخ شرعية وحتمية التوسـع الامبراطوري « هذا الهدف العظيم الذي يصبو الله اليه »(49) . « لقـد تكشفت يد الله ، بطريقة رائعة »(50) ، كما « تجلى تماماً فعـل العنـاية الالهية في اكتشاف العالم الجديد ، وفي تأسيس ونمو وحماية دول وكنائس اميركا الشمالية »(51) . « ان المسافة التي وضعها الله بين انكلترا واميركا هي اثبات مقنع وطبيعي على ان سلطة الاولى على الثانية لم تدخل يوماً في عداد خطط العناية الالهية »(52) .

ان تكوين التعابـير التـي تعنـي امـيركا ، امـيركي ، أمْرَك (américaniser) يشكل الدلائل على هذا التصميم الالهي .

ان امـيركا هي ، في نفس الوقـت ، كنعـان الجـديدة ، القـدس الجديدة ، بلد عدن ، حيث يسـود « الله الطبيعـة »(53) ، و « النبـات الوافر ، وعطاء الازهار والاشجار المطلـق واللـذيذ ، وهـي واشجـار تلتوي من ثقل الثمار ذات الالوان الزاهية »(54) ، و « صيف ثابت حيث

(49) Jeremy Belknap, 1792

(50) Un sermon de Samuel Maclintock, 1784

(51) Un sermon de J.Dana, 1779

(52) Thomas PAINE: : مرجع سابق

(53) المرجع السابق .

(54) «Thomo Checki», jersey Chronicle, 1795

لا يتعكر انسجام الطبيعة لا في المحيط ولا في الغابات ولا في السماوات»(55) .

وفيما يخص الاميركيين ، فهم تحت الحماية الالهية .

ان شعباً مختاراً ، فقط ، هو الذي يستطيع الاقامة في هذا البلد الموهوب بكرم الى هذه الدرجة . ولذلك فان الله « غربل امة بكاملها حتى يتمكن من ان يرسل اليها افضل حبوب عنده »(56) . لقد عاملهم مثل العبريين « فانه رسم لهمْ ، عندما بحثوا عن ملجأ بعيداً عن الاضطهاد ، طريقاً في البحر ، واعد لهم الطعام في الصحراء »(57) . هكذا تتضاعف الطوبوغرافيا المادية بطوبولوجيا توراتية ، بحيث يتم وصف الحدود الاطلسية بمثابة البحر الاحمر بالنسبة للعبريين(58) .

أمْرَكَ : ان هذه المهمة الملقاة على عاتق الشعب المختار تعني ، في نفس الوقت ، وضع قواعدشؤون العالم ، « يجب على كل مواطن حر في الامبراطورية اعتبار نفسه بمثابة مشترع لنصف الانسانية »(59) ؛ بشَّر بالانجيل : « ان الاستعمار والنمو السريع والازدهار الذي لا مثيل له في هذا البلد هي الطرق التي اختارتها العناية الالهية لترسخ وتوسع من امبراطوريتها »(60) ؛ حرَّر : « لقد رصدتنا العناية الالهية الى تجربة اكبر

---

(55) Time Piece, 1797

(56) Le Véritable Intérêt de la Nouvelle - Angleterre, du puritain William STOUGHTON.

(57) Sermon de Dana, 1779

(58) المرجع السابق .

(59) Joel BARLOW: Discours

(60) Abiel ABBOTT: Thanksgiving sermon

بكثـــير ايضـــاً : يعني ان لا نكون فقط مخرجاً لاخوتنا الاوروبيين ، بل ان نعلمهم ان لهم نفس الحقوق »(61) ؛ نوّر : « ان استعمار اميركا ، بداية تحقيق مشروع العناية الالهية الذي يعني تدفق النور »(62) ؛ جدّد : « ان العالم الجديد يجدد العالم القديم »(63) .

ينجم عن هذه المحاججة الثلاثية التصـور الامـيركي عن الحـدود بوصفها حدوداً متحركة ، مطاطة ، مستقبلية ، غـير محـدودة ، لانهـا مندرجة في مخطط الهي يستبعد التحديد . انها حدود بالكاد تفصل مكاناً سبق احتلالـه عن مكان يجـب فتحـه . ان طرح الحـدود كمرحلـة ، كمعلم ، كحد مؤقت ، وليس كحد نهائي ، يعني ان التوسع ليس ابداً إلاّ امتلاك لاقليم عهدت به المراعاة الالهية . ولذلك ليس بالغريب ان يُعتقد ان الاقليم الاميركي ليس ، في نهاية الامر ، إلاّ بمثابة فصل من مسرحية : « لقد خصصت العناية الالهية اميركا لتكون المسرح الـذي يجب ان يبلغ فيه الانسان قوامه الحقيقي »(64) . أليست « معزولـة عن الاوروبيين وعن بقية العالم (. . .) لتكون مسرح احداث هامة »(65) ، « ومشهـــداً جليلاً واحتفـــالياً ومن اعلى الدرجات ، فاجتذبت اليها انظار الانسانية بكاملها »(66) ؟ اليست ، بالتحديد ، النزعة المضطربة لفيلم رعاة البقر الاميركي ، وبشكل عام نزعة السينما الامـيركية ، هي

---

(61) Jeremy Belknap

(62) John ADAMS: Diary and Autobiography

(63) PAINE: Les droits de L'HOMME

(64) John ADAMS: مرجع سابق

(65) Noah Webster, 1798

(66) Timothy DWIGHT: Adiscourse on some events, 1807

تحويل تأسيس الاقليم الى مشهد سينمائي ، من خلال تمجيد « جلدة الاطار الذي جرى فيه هذا التأسيس »(67) ، بالاضافة الى مناظرة الطبيعية ؟

[الاقليم الحيوي]

قال ماركس عن الالمان انهم اصحاب « فكرٍ فلسفي » . لقد اشار بقوله هذا الى عجزهم عن تحقيق وحدتهم « عملياً » ، وميلهم الى وضع الشرائع « في عالم الاحلام الاثيري »(68) . ومع تكوين الرايخ نزلت الايديولوجيا الالمانية من سماء الافكار الى ارض الصناعة (Terra firma) .

بالتأكيد ، لا يرجع التجذر الاقليمي للتفكير السياسي الالماني الى العام 1871 . ان كونفدرالية الرين التي فرضها نابوليون ، ومشاريع الليبرالي ويلكير Welker او مشاريع فون غاجرن Von Gagern ، وآراء ليست List ، وتحقيق « الاتحاد الجمركي الالماني » (Zollverein) ، وسياسة سكك الحديد البروسية ، وخاصة نزاع المانيا « الكبرى » و « الصغرى » ، ان كل ذلك يعطي صورة عن رهانات جيو - سياسية مفتوحة ، ولكنها ما تزال ضعيفة التنظير ، وصعبة التحرر من خصومات السلالات الحاكمة . يجب انتظار العام 1871 حتى يبدأ استعمال المسائل الليستية (نسبة الى ليست) عن الوحدة الجرمانية

(67) المرجع السابق .

(68) « الأرض للفرنسيين والروس - والبحر للانكليز - ولكن في مجال الاحلام الاثيري - نحن الذين نسود بدون شريك - هناك نمارس هيمنتنا - هناك لا نكون مقسمين » : HEINE Deutsehland, ein Wintermärchen, chap. VII

الاقتصادية ، وآراء بروك Bruck وشوارزنبرغ Schwarzenberg ، وفكرة Mitteleuropa ، في اطار برنامج توسع يضع خريطة « لموقع تحت الشمس »(69) تطالب به الطبقات المسيطرة لالمانيا في عالم يجري تقسيمه .

كان بول دي لاغارد Paul de Lagarde يحلم بالمانيا تبدأ من أرغون Argonne وتصل الى البحر الاسود . وسيطلق الفريق الواغنري من بيريت Bayreuth وحول هارت Hart ، ولانغبين Langbeim ، وولتمان Woltman مسألة الوحدة الجرمانية . وعندما اسس كارل بيترز Karl Peters (L'Alldeutscher Verband)(70) فانه اعطى للهيمنة الالمانية موقع المركز - الاوروبي . واستوحى تأسيس «Deutsehbund »(71) من قبل فريدريك لانج ، و« العصبة البحرية » من قبل الجنرال كييم Keim ، و« الشركات الكولونيالية المتحدة » من قبل دوق دي ماكلمبورغ Maclembourg ، ونشر L'Alldeutsher Atlas ، ودعاوة Deutscher Sehulverein(72) و Deutschland im Ausland(73) ، استوحى كل ذلك من نفس الطموحات التي عبرت عنها جيداً الخريطة المنشورة عام 1895 في المقالة النقدية Grossdeutse land und Mitteleuropa والتي تحتوي على بلجيكا الفلامانية ، والبلاد - المنخفضة ، واللوكسومبورغ ، وسويسرا الألمانية ، والنمسا ، وايستريا

---

(69) تعبير بيسمارك نفسه .

(70) عصبة الوحدة الجرمانية .

(71) الحلف الالماني .

(72) الجمعية المدرسية الألمانية .

(73) المانيا في الخارج .

Istrie (74) ، والمجــر ، والتخــوم التشيكية والسلوفــاكية والبلــطية والبولونية ، وذلك بشطحة قلم قصيرة ، وبارزة بلون جذاب تماماً(75) .

ومن خلال هذا البرنامج أقيمت مشاريع الوحدة الجمركية ، وهي المثال الاعلى القديم للهانس Le Drang nach Osten, hanse ، « مستقبـل المانيا على البحــار » ، الــذي سيوحــده فيما بعــد مفهــوم ليبنسروم Lebensraum . وفي بضعة سنوات صارت الدولة من تحقيق للفكرة اقليماً له حدوده ، وقلعة ، ومكاناً مسوراً ، وجسماً حياً يمزج ، في كيمياء قديمــة قوية ، ارضــاً وشعبــاً ، ترابــاً ودمــاً (76) ، ملحمــة وطوبوغرافيا . هكذا يتم الانتقال من الفلسفة الى جيو ـ سياسة يجسدها هيغل ، ومن ثم راتزل .

راتزل

ومع أن راتـزل يحتل مكانـاً مركزيـاً فـي هذا الاشباع للفكر الالماني بصورة الاقليم ، فان الجميع لا يرجعون الى اعماله (وان كانوا يقرأونه) ، بيد ان هذا الملخص الواسع (« بحث » بالمعنى الذي اعطاه له هـيردوت) يقـدم لتصرفـات وخطابـات السلطـة حججاً ومعلومـات وتحليلات . لقد كتـب ما بـين 1869 و 1904 (77) . كان عملـه في ذلك الحين اجرائياً بشكل كامـل (78) : لم يكن راتـزل ، الــذي يتدخـل في

(74) كانت تُسمى Südkustenland ، وهو الأسم الذي استعاده هتلر عام 1943 .

(75) إنها طريقة ليست مختصـة بالمانيا . عرفـت فرنسـا ، في نفس الوقـت ، خرائطـاً تتضمـن الألزاس ـ اللورين (تحت الادارة الألمانية) .

(76) Blut und Boden

(77) 1869, «Etre et devenir du monde organique». 1908, «Images de la guesse avec La France» .

(78) قال : « ان المعرفة الجغرافية والاتنوغرافية هي قوة سياسية » .

النقاشات الدائرة ، يحسم ابداً . انه يصنف ، يقطع ، ويضم اجزاء من الشعب ، وقطعاً من القارة . وعندما كان يندلع نزاع ما فانه لا يسعى الى التوفيق : بل يركب . انه يقوم بعمليات بالمعنى الرياضي . ولا يقصد العمليات الاربع الاساسية قدر قصده الارتفاع الى مستوى القدرة ، وتحديد الاعراق .

بدهيات التوسع (79)

يرى راتزل « ان الحركية (Beweglichkeit) هي ميزة اساسية في كل شعب حي ، وخاصة بجميع الامم ، حتى في تلك الامم الراكدة » . هناك حركات داخلية وحركات خارجية ، الاولى كامنة ، والاخرى جلية . ولكن هذه الحركية « لا تكمن في مجرد اهلية الانسان على تغيير المكان ؛ بل نقصد بالحركية مجمل الحالات المادية والروحية ، المتطورة بشكل رائع او التي هي في طريقها الى التفتح ، والتي تجعل من هذه الأهلية مبدأ اساسياً في تاريخ الانسانية » . كما انه يجب اقتران هذا المبدأ الماورائي بخصوصيات الارض . ان الارض ، سواء كانت مثبتة للناس او طاردة لهم ، تحرك من الداخل « النزعات » القومية التي لا يمكن فصل الارض عنها . تتصرف هذه الحركية المتعالية من تلقاء ذاتها ، دون لزوم لتدخل غريزة ترحالية معينة (Wandertrieb) (80) .

(79) نشرت ، في العام 1941 ، في منشورات (Alfred Kroner (stuttgart) ، مختارات جمعها وقدّم لها الجنرال HAUSHOFER ، وهي بعنوان : Puissance du sol et destinée des peuples ولقد زخرفها Karl haushofer بملاحظات تميل الى اثبات قابليتها التامة للتطبيق على مرحلة القوانين التي اعلنها راتزل .

(80) ليست هذه الحركية المعممة بلا علاقة مع هجرات البروليتاريا الزراعية والمدينية التي اصبحت مستمرة بعد ازمة 1873 ، وهو الوقت الذي صار فيه ضروريا تغيير بنية النظام .
راجع : =

وفي الحقيقة ، تتمتع المجالات الشاسعة بقوة جذب كبيرة لدرجة تكفي لاندفاق الشعـوب اليهـا بشـكل طبيعـي .(81) . تعمـل هذه الحقيقـة المقـررة ، هنـا ، بمعنـى الحتمية المطلقـة ، وذلك لان الحـركية هي ، عملياً ، خارجـة عن الملمـوس . بيد انهـا تتمفصـل على مجموعـة من العوامل التجريبية . وهناك من الجانب الانسانـي : عجـز في وسائـل المعيشة ، وطرد من قبل العدو ، ورغبة في الفتح ، وحنـين الى عالـم افضـل . وفي الجانـب المادي هنـاك : صراع حول نوعية الارض ، ومسألة انه « ليس هناك (في الجزء المسكون من الارض) عقبات مطلقة امام حركة الحياة ، بل حث دائم للبحث عن الحيوي » . تؤمن كل هذه المعطيات تصديقاً اضافياً ، غير ضروري ، للمحاججة التي تبقـى فيما يتعدى المثال . وتحقق الاضافة التجـريبية ، في نفس الوقـت ، تأثـيراً علمياً في البناء الفكري .

« الشعوب تمضي وتبقى الارض » . انها ثابتة وتكمن في الظواهـر الآلية التي تلتحم بها . تخلق درجة التعميم نزعة قوية الى التصنيف على قاعـدة التماثـل : ان المغامـر الاسبانـي ، وجعـل بوهيميا الالمانية تشيكوسلوفاكيّة بتأثير العمال المهاجرين ، والدياسبورا اليهـودية ، ان كل هذه الظاهـرات ترجـع الى فئـة فرعية واحـدة من الانتقـال الجيو سياسي : التوسع المنتشر بطريقة التسرب . يجب ، على الاكثر ، تبيان

BOHME Prolegomcna Zur einer sozialund Wirtsehoftge shichichteim =
19. Und 20. Jahrhundert. Francfort, 1965

(81) هكذا يقول هوزهوفر Haushofer الذي ينطلق من هذا التشوش المفاهيمي : ان معاهدة فرساي قد طردت مليونا من الألمان المقيمين على ضفـاف الفيستـول وفي سيليزيا العليا . ستدفع السياسة الهتلرية الى الظاهرة المعاكسة .

الحالات الحادة ، ذلك ان « عمليات الاجتياح الكبيرة ليست إلاً درجة [حادة] في الانتقال الفاعل باستمرار » . ولذلك يجب ألاَّ تُطرح مسألة الاصول التي استبعدها راتزل في اتجاه ماورائـي . فالانتروبولوجـي ـ الجغرافي يسجل فقط وجـود اقليم انطـلاق ومنطقـة وصـول متغـيرين باستمرار ، مع العلم بان تاريخها يُحدَّد بشكل تقريبـي . ومـن جهـة اخرى ، « يقابل كل انتقال فعـال انتقـال منفعـل ، والعـكس صحيح » (82) .

يُفهم نطاق الدول وشكلها كتنظيم متدرج لعلاقات القـوة ، ولا يُفهم أبداً كانسجام . ويصحح رسـم الخرائـط (cartographie) هذا كأنه عملية وضع خرائط بالقوة (cratographie) : نسخ في مجال دولة ما . إن إبرازنا لنظام الأسباب والنتائج ـ هكذا « فـإن تقـدم الحضـارة وضع حداً للاجتياحات الكبيرة » ولكن « كل انقـلاب سياسي ، مهما كان قليل الأهمية يسبب (اليوم) هجـرات صغـيرة(83) » ـ يجعـل هذه الجيـو ـ سياسة تؤيد الانتقالات المستمرة في المعرفـة المطلقـة ، وتطبـع بذلك ايديولوجيا « المسرح السياسي » البرجوازية .

التواجدية

ينشأ الشعب (شعباً معيناً) في مجال معين ، ويتطور المجال بطريقة متلازمة مع تاريخ الشعب(84) . يعني ذلك أن الملاءمة لم تكن تامة

---

(82) تحدد الانفعالية امكنة المرور ، ويتحدث راتزل حتى عن « البحار الداخلية » .

(83) هكذا يفسر هوزهوفر الانغراس الكثيف جداً في نيولاند شرقي المانيا ، بالمقارنـة مع تطـورات القبائل الباڤارية فيا قبل وبعد الألب .

(84) هكذا نقابل دراسة الشكل الانساني وتطوره ، عند جوزف نادلير ، الدراسة الانتروبولوجية =

أبداً ، إنها ، بالأحرى ، ملاءمة مقاربة[85] . يوجد الشعب (Volk) ذاته انطلاقاً من العشيرة (Naturvolk) ، وينمو عبر ذاته بفعل « امتلاك الوعي » نحو الشكل القومي . وهو يتطلب ، في المرحلة البدائية من هذا التطور ، مجالاً صارم الحدود ، مكاناً ستجد فيه شخصيته المستقبلية حدودها بمعزل عن أي تأثير خارجي . يصف مثال الجزيرة هذه الظاهرة بدقة : انكلترا ، اليابان ، سيلان . وفي هذه الحالة نجد تراكماً مشبعاً للطاقة[86] . وسرعان ما يتجرب هذا الفيض في الطاقة ، كما ولو بقوة قاهرة ، خارج الحدود التي كان الشعب قد فرضها على نفسه . ثمة علم للمدى يتكشف أنه نافع ، ويخفق التوسع القومي ان هو لم يستند إلى فهم للمجال يزداد دقة باستمرار . إن التوسع هو ذلك الانتقال من اقليم الدولة إلى اقليم الاتنية . وبما أن هذا الأخير غير قابل للتعريف[87] ، فإننا نلحظ الأهمية الكبيرة للجغرافي الذي يبعد تعلة المفاهيم الملتبسة ، من أجل ارساء أفضل لسياسة الفتح . فالحدود ، مثلاً ، هي وهم . يقابل راتزل خط الحدود بالمجال الحدودي . تُفسر الأولى بالالزامات الديبلوماسية وبعقل الدول الراهن ، بيد أن أفضلية الثانية ، التي تسمى أيضاً الهدب ، ما بين

= للمشهد الطبيعي والمشهد الثقافي ، والشعري . Literature schichte der deutschen (Stämme und Landschaften, 1912) .

(85) تُلاحظ الترجمة الدلالية لهذه الظاهرة في المحاولات التي تعمد ، الى دراسة الشكل ، وطوراً ، الى الدراسة الانتروبولوجية ، من اجل صياغة تعابير مثل « جزيرة قومية » او « محيط هادىء » .

(86) اثبت Wolfgang Emmerich كيف ان المعنى العميق لجميع النماذج العضوانية يكمن في محو الحدود ما بين المجتمع ـ التاريخ والطبيعة .

(87) اشار Kenneth BURK الى الاهمية البلاغية لما لا يقبل التعريف في Mein Kampf «The rhetoric of Hitler's battle», in the Southern Review, V, I, 1939.

الاقليمية ، الشريط أو الحزام ، هي أنها أكثر تلاؤماً مع الحركات الملموسة . وبالعكس ، فإن مراجعة مبدأ الحدود الطبيعية ، تفرض نفسها ، وذلك من وجهة نظر فاعليتها . وبالتأكيد ، يثبت مثال الشعوب ، سكان الجزر أو شبه الجزر ، أنها قد تشكلت بسرعة في قوميات ، ولكن الحدود النهرية ، مثل المين Main، أو السبري المنخفضة La basse Spree ، لا قيمة لها إلا بنظر الجغرافي العسكري[88] .

يتقاطع التطبيع ونزع التطبيع في (un no man's land notionnel): يناقش راتزل الحدود العنصرية ، والثقافية ، واللغوية واستحالة التصاقها ، ويقترح بأن الحدود ـ الخط ليست أبداً إلا ناتج توتر فيما بين الأقاليم[89] .

انكسار الأشعة

تؤثر الأرض على الشعب الذي يغيرها ، بالمقابل . إن المناخ والتضاريس والشكل تمنح الشعب قدرة على التوسع كما أنها تؤكد أهلية منطقة على إنتاج الحضارات . بيد أن قيمة الأقليم قد تكون موضوعية أو ذاتية حسب المصالح موضوع الرهان . هكذا فإن الموقع المركزي أو الطرفي ، الجزيري أو القاري (داخل القارة) ، وتضريس الأرض الدفاعي أو الهجومي ، المستقل أو غير القابل للسيطرة عليه ، يؤثر كل ذلك على سياسة الدول ، ولكنه يؤثر أيضاً على قدرة الشعوب على الترسخ . وتصبح الدولة جهازاً من خلال تنظيم الشعب للأرض .

---

(88) « الرين نهر الماني ، وليس حدوداً المانية » . 1813, Ernest Moritz Arndt . انها لمعروفة الشهرة التي لاقاها ، عام 1940 ، المؤلف : Rhein- Reich- Frankreich .

(89) هكذا يرى هوزهوفر في استيلاء الفرنسيين على ريناينا عملاً مخالفاً للطبيعة ، ولكنه يجد استيلاء الإلمان على تشيكوسلوفاكيا عملاً عقلانياً .

ليست الألفاظ البلاغية في الخطاب الجيو سياسي(90) حيادية : إنها تضمن قبولاً جيداً للستراتيجيات التي تقع خلفها . يحل وضوح المقولات الدلالية في الظاهر مكان الرهانات الستراتيجية التي توضحها الدعاية ويكشفها النزاع . ثمة دائرة لغوية تقيم تطابقاً اجمالوياً (globa lisant) (واحة/ جزيرة ، البولينيزيون/ الاسكيمو) من أجل تمرير رؤيات توسعية وجعلها مقبولة(91) .

عندما يقترح راتزل « الشروع في طريقة القارات » مثل آسيا أو أميركا حيث يشيع « الهرج والمرج » المكاني ، فإنه يفكر ويدعو إلى التفكير بتغييرات في الخريطة الأوروبية . وعندما يصنف الشعوب على أساس قدرتها على الهيمنة (توجد هذه القدرة عند القادة الفرنسيين ، وليس عند الجماهير ، بينما هي أشد عند الجماهير الاسبانية مما هي عند القادة الاسبان ، وهي متساوية عند كل من القادة والجماهير الانكليزية) فإنه يفكر بالالمان(92) . تبدو نزعة النمذجة فارغة ، في الظاهر ، بيد أن دعاية التحالفات تعطيها مضموناً .

---

(90) انها لمفهومة تحفظات جهاز البرجوازية الفرنسية الجغرافي الذي سيتركز النقد الذي اجراه في نزعة وصفية شبه ـ مدحية وملتبسة : ان أعمال راتزل مزعجة لانها تنضح بجغرافية سياسية بشكل وقح . « عملت المدرسة الجغرافية الفرنسية ، التي يقف على رأسها فيدال دي لا بلاش ، على التميز عن الجغرافية الالمانية ، وخاصة عن تفكير راتزل ، وذلك لسبب بديهي ، اذ ان تفكير راتزل كان يبدو بمثابة تبرير شرعي مفرط في وضوحه لتوسعية الرايخ » :

Yves Lacoste

La géographie, ça sert d'abord à faire la guerre, Paris, 1976

(91) يشير هوزهوفر الى ان الحرب البولو نيزية ، عام1939 ، تعادل فتح اليابان لمنشوريا .

(92) يوضح هوزهوفر بان الالمان انتقلوا ، ببطء ، في ظل « الاشتراكية ـ القومية » ، من الصنف الاول الى الثالث .

شرع راتزل ، في العام 1869 ، بانتروبولوجيا جغرافية أفضت إلى جغرافية سياسية . وليس الموضوع هو الذي يتغير (يبقى على مستوى الكون) أو المنهج (يبقى منهج البدهيات) ، بل درجة العلاقة التضمنية فيه . ينتقل من العلم الخالص إلى العلم المتضمَّن . وبعد أن تساءل عن مستقبل الشعوب ، من خلال إجراء مسح للكرة الأرضية ، أقترح راتزل على الالمان ، المستعمِرين بالفطرة ، توحيد دولتهم التي كانت ما تزال فيدرالية ، وبالضغط على جيرانهم بهدف التوسع في أوروبا ، وبالحصول على موقع في السوق العالمية . إيجاد المركز . يقيم البرنامج الذي يعرضه ، بعضوانيته الاقليمية وتوسعيته القومية ، تعاوناً مثالياً بين مجموعات المصالح (الفلاحون المحافظون جداً ، صغار ومتوسطو البرجوازية الليبرالية ، ورأس المال الكبير[93]) التي لا يكفي لتوحيدها الخوف من البروليتاريا ووسواس (Kleinstaaterei)[94] والحقد على الفرنسيين . إنه إذن جراح يعالج الطبقات الاجتماعية ، ولكنه جراح يتعامل مع المراحل ، ذلك أن راتزل لا يعمل على الظروف فقط ، بل على الحقبة . لقد تعاقبت ، ما بين 1869 و 1904 ، ثلاث

---

(93) يرفض كبار الملاكين العقاريين ، المرتبطين بالبيروقراطية وبالكنيسة ، الحركية الرأسمالية ويطالبون بالحماية الجمركية التي تحمي نظام نصف بطريركي واستقرار مداخيلهم . يهتم صغار ومتوسطو البراجوازية الليبراليون بالثورة المستمرة للحدود القومية في الداخل والخارج . وكان الرأسمال الكبير المصرفي والصناعي يتحالف مع كل من الطرفين حسب المرحلة او حاجات تغيير بنية النظام . لم تتمكن اية سلطة ، لا بيسمارك ولا كابريفي ولا بولوف Bülow ، من تجاوز هذا التوزيع الثلاثي للسلطة الموروث عن الثورة « من فوق » : مثلث فعلي .

(94) Klcinçtaaterei : الانقسام الى ذرات هي البلدان الصغيرة التي كانت تشكل ابنية الالمانية حتى تأسيس الرايخ الثاني .

مراحل :

1 ــ أزمة 1873 الاقتصادية ، توطيد الوحدة الالمانية في استراتيجية دفاعية تسعى إلى التوازن الأوروبي .

2 ـ ركود ومأزق الدولة الزراعية/ التصنيع ، المغامرة الاستعمارية التي انتزعت بعض المستعمرات الصغيرة في افريقيا (1884 ــ 1885)[95] .

3 ـ انطلاقة امبريالية ، منذ العام 1819 ، نحو Weltmacht ، انطلاق فعلي في كل الكرة الأرضية ، قائم على سياسة حربية بحرية .

إنه جراح يعالج الخطاب ، بشكل خاص : كانت دعوة الوحدة الالمانية تستند إلى مجموعة من الخطابات ـ العنصرية ، الطبيعية ، التاريخية ، الثقافية ـ المتناقضة المنطق ، والتي يطرح كل منها حدوداً مثالية . عمل راتزل على سبكها ، واسقطها من ثم على الخارطة دون تمييز لأي منها .

إنه أخيراً جراح يعالج الآلات . وُضعت المطالبة بالتوسع في تداول الناس انطلاقاً من مجموعة من الأمكنة : الجامعة ومجموعات الخرائط فيها وSchulverein ، هيئة اركان مؤلفة من فون برناردي ، مولتك ، شليفن ، تريبيتز ، الأحزاب ، الأحلاف ، الجمعيات الاقتصادية مثل Mitteleuropäischer Verein [96] . لقد فصل راتزال خطاباً على

---

(95) ان للاستعمار ميزة لا تقدر لانه يقدم للبرجوازية الوسطى المهددة امكانات التماثل السياسي والاجتماعي . Manfred Clemenz: Gesellschaftliche Ursprünge des Faschismus, Franefort, 1972 .

(96) الجمعية الاقتصادية لألمانيا الوسطى ، التي يحركها هيربرت فون بيسمارك ، ابن مستشار رئيس الجمهورية .

القياس ، على قياس هذه التعددية في المصالح والتصورات والطموحات .

. . . إلى المركزية العنصرية :

يروق للسويدي Kjellen [97] اعطاء أهم المفاهيم الراتزلية حدودها القصوى : يصبح معنى المجال ، وقدرة الشعب الطبيعية على تنظيم الطبيعة وقفاً على العنصر الجرماني . يتفاوت قدر الشعوب في أهليتها للقيادة ، أي لحكم الآخرين . يشدد Kjellen على مماثلة الدولة بالفرد : تصبح الجغرافية السياسية جيوسياسة (Geopolitik) . إن هوز هوفر ، اللواء والاستاذ ، الجندي والسياسي ، هو الذي يقف على رأس المدرسة الجديدة . لقد استعاد ، بعد تأكيده على راتزل و Kjellen ، اطروحات الانكليزي ماك كيندر (Mac Kinder) . يعتبر هذا الأخير أن ثمة كتلة واحدة ، على الكرة الأرضية تمتاز بأهمية ما : إنها مجموع أوروبا ـ آسيا ـ افريقيا التي يسميها الجزيرة العالمية (Worldisland) التي يتطابق مركزها ، أو مدخلها Heartland ، أو قلبها ، مع روسيا . « فمن يمسك بأوروبا الشرقية ، يمسك بـ(Heartland) ، ومن يمسك بـ (Heartland) يحكم الجزيرة العالمية (Worldisland) ومن يمسك بهذه الجزيرة يحكم العالم » . يصل ماك كيندر إلى استنتاجاته بإجراء المعارضة ما بين القوى البحرية والقوى القارية (داخل القارة) . ويكتفي هوز هوفر بنقل مدخل (Heartland) الجزيرة العالمية قليلاً نحو الغرب ، جاعلاً المانيا في مركز العالم [98] . ولقد عرّفه

---

(97) Les grandes puissances aujourd'hui, 1914; L'Etat, forme de vie, 1917.

(98) تسلم جميع الجيوسياسات بوجود مركز ما : مستنقع نوستروم بالنسبة للجغرافيين الموسولينيين ، آسيا الكبرى بالنسبة للجغرافيين اليابانيين . يستعيد الأميركي سبيكمان Spykman اطروحات =

رودولف هيس ، أحد طلابه ، على هتلر . فقام هوز هوفر بزيارة هتلر في سجن لاندسبورغ بينما كان يكتب كتابه « كفاحي » (Mein Kampf) . وهكذا أصبحت الجيو سياسة المتأرينة (aryanisée) : (المستندة إلى الشعب الآري) ، فلسفة الحزب القومي الاشتراكي . وفي العام 1933 أصبح هوز هوفر عميد كلية العلوم في جامعة ميونيخ . لقد أصبحت الجيو سياسة « وعي الدولة السياسي » .

الاقليم الطبيعي ، الموعود أو الحيوي . ليست هذه المقولات الايديولوجية الثلاث فرنسية أو أميركية أو المانية ، بشكل خصوصي . بل هي تمتزج ببعضها . تستغلها النزعة القومية الاسرائيلية الشابة ، دورياً ، تبعاً لتوجهها إلى الرأي العام الدولي (حدود طبيعية : ارتفاع الجولان) ، أو إلى الجماعة اليهودية (الأرض الموعودة : عودة إلى Eretz) ، أو إلى الرأي العام الاسرائيلي (من الحيوي بالنسبة لنا أن نتجاوز حدود 1948) .

= ماك كيندر انطلاقاً من وضع الخرائط بشكل يتمحور حول الولايات المتحدة . وفي الخرائط الصينية ، تحتل الصين مركز العالم . تتكتل الايديولوجيا (رؤية العالم) والستراتيجيا (ادارة المصالح) في هذه المركزوية ـ الجغرافية .

المراجع

— BLOCH (E.): Erbschaft dieser Zeit, Francfort, 1962.
— BOHME (H.): Prolegomena zur einer Sozial-und Wirtschaftsgeschichteins 19. und 20. Jahrhundert, Francfort, 1965.
— EMMERICH (W.): Zur kritik der Volkstumsideologie, Francfort, 1971.
— GODECHOT (J.): La pensée rèvolutionnaire, Paris, 1964.
— GUERIN (D.): La Lutte des classes sous la 1er république, Paris, 1942.
— GUIOMAR (J.- Y.): L'Idéologie nationale, Paris, 1974
— JULIEN (Cl.): L'Empire américain, Paris, 1968.
— LERNER (M.): America as a civilization, 1961.
— MARIENSTRAS (E.): Les Mythes fondateurs de la nation américaine, Paris, 1976.
— NYE (R.B.) et MORPURGO (J.E.): Histoire des Etats Unis, 1961.
— RATZEL: Politische Geographie.
— SOBOUL (A.): Histoire de la révolution française, Paris, 1972.
— TURNER (F.): The frontier is American History, 1903.

3_النموذج الأبيض

بقلم : ميشيل كورينان
وموريس رونيه

أن تصنيف التنوع البشري فكرة بسيطة وقديمة . نعثر على آثارها في الامبراطوريات ، وعندما يجابه التوسع الاقليمي لتشكيلة اجتماعية ما أو يشمل عدة اثنيات[1] . بيد أن الجديد هو التمييز العنصري واستغلال الانسان الملوَّن من جانب إنسان من لون آخر ، وهو تمييز واستغلال رُفعا إلى مصاف النظام . وهما جديدان جدَّة توسع التجار والبحارة والجنود والمبشرين الأوروبيين ، في الكرة .

وهكذا لا يسعنا فهم النماذج العنصرية إلاَّ انطلاقاً من أكثرها تطوراً :

النموذج الأبيض . إن هذا التدريج الكلي والشمولي والاجمالوي للأعراق هو وحده الذي يسمح بفهم أشكال « النزعة العنصرية » التي تجاوزها التاريخ أو المتبقية . فالحديث عن العنصرية دون أن نفضل [منهجياً[2]] النموذج الأبيض يؤدي إلى أكثر العموميات غموضاً ، عموميات وافرة بقدر ما هي عديمة الفائدة . وبشكل عام فإن غالبية

---

(1) راجع الملحق (أ) في نهاية هذا الفصل .

(2) راجع الملحق (ب) في نهاية هذا الفصل .

النصوص التي تعالج العنصرية تفترض مسبقاً عنصرية موجودة بذاتها . وسواء أعطت هذه النصوص أفضلية لتحديد اجتماعي ـ اقتصادي أو انتروبولوجي أو غير واع ـ علاقات طبقية ، علاقة مع الآخر ، الرغبة ـ فإن مؤلفيها يتفقون على طرح مسلمة وحدة الظاهرة العنصرية ، من معاداة ـ السامية القروسطوية المسيحية إلى معاداة ـ السامية المعادية للرأسمالية في القرن التاسع عشر ، مروراً بالحكم المسبق الذي يربط ما بين اللون والاستعمار ، والحكم المسبق المستند إلى الهجرة أو كتابات غوبينو أو تجار، قياس الجمجمة ، أو الاسطورة الآرية أو المعسكرات الهتلرية .

تاريخ النموذج الأبيض

المركنتيلية : ما قبل النموذج

يستند نشر الوكالات التجارية الأجنبية ، وإنغراس الأقليات الرائدة ، وتكوين أولى الامبراطوريات الاستعمارية ، إلى تملك كلبي للموارد البشرية : يعني « اكتشاف مناطق الذهب والفضة في أميركا ، واخضاع السكان المحليين للاستعباد ، وطمرهم في المناجم أو ابادتهم ، وبدايات الفتح والنهب في الهند الشرقية ، وتحويل أفريقيا إلى نوع من مكان تجاري لاصطياد الزنوج »[3] . لا يمكن للعبد ، في العبودية المركنتيلية أو في العبودية المنزلية المتمحورة حول الاشباع المباشر للحاجات الشخصية ، أن يحصل على أجره إلاّ عينياً . إنه ليس سوى تابع أو ملحق بالمنجم أو المزرعة . ولهذا كان على النظام إنكار إنسانية العبد . إنه لا يعرف ، بوصفه حيواناً أو آلة أو كافراً ، كيف يشارك في

(3) . ك . ماركس : رأس المال ، الكتاب الاول ، مجلد3 ، المنشورات الاجتماعية ، باريس .

دائرة السوق التي هو مع ذلك دولابها الحاسم . يفترض اقتصاد النخاسة عدم تماثل صارم : إنسان ـ أبيض ـ حر/ دون الانسان ـ غير أبيض ـ عبد .

الامبريالية : النموذج

إن العبودية المركنتيلية الملائمة للاستخراج المنجمي وللاستثمار الزراعي الواسع ، غير قابلة للتعميم . إنها لا تُدمر الاقتصاديات المحلية التقليدية مع أنها تعكرها . وذلك لانها ترتبط بها من أجل تجديد الحيوانات البشرية . إن نزع ملكية الجماعات المحلية الأصيلة ودمجها في دائرة السوق هما وحدهما اللتان تسمحان بالتوسع الكوني لنمط الانتاج الرأسمالي . كما أن إضافة معيار عنصري إلى نظام العمل المأجور تسمح باستغلال كثيف وإلى أقصى حد لليد العاملة المستعمَرة .

ويصبح ، من الآن فصاعداً ، بوسع الناس الملونين بيع قوة عملهم (وأن يتكونوا كقيمة تبادلية) ، ولكن بسعر قابل للتخفيض بشكل تعسفي ، يمثل هذا الأمر صفقة المغبون أكثر مما هو منح لحرية (التبادل المحتمل) يعطيها المعيار العنصري أقل من أجرها (التبادل الظاهر) . وإذا كان اقتصاد النخاسة يتطلب قطبية صارمة ، أبيض/ غير أبيض ، فإن تعميم علاقات السوق يسمح بأقصى التدرج . فالأول يفرض العمل الاجباري ، أما تعميم علاقات السوق فيتطلب مهام التأطير وتجارة المفرق والوظائف الثانوية في الادارة .

الفاشية : النموذج الأبيض الأكثر اكتمالاً

يخلق التوسع غير المحدود للنموذج الأبيض تأثيراً عكسياً . إن نفس النموذج هو الذي يُعاد استيراده مع نزوح اليد العاملة من المستعمرات

وافقار المعمرين و« البيض الصغار » ، بفعل المنافسة المحلية . وبعد أن تم اختباره في المستعمرات يُعاد توظيفه في المتروبول ، مطبقاً على « البيض » أنفسهم . ثمة دراسة مفرطة في وقتها - شكل الجمجمة ، برغلة الجلد ، بنية العظام - تكمل المعيار الصبغي الذي لم يعد مجدياً . يقيم هذا النموذج الأبيض الأكثر اكتمالاً سلماً متدرجاً (من العرق النقي إلى غير النقي) ، وهو سلم يجعل الخصومات ما بين القوى الامبريالية عنصرية : هناك في القمة الجرمان ثم السلتيون ثم الألبيون فاللاتين . . . يتحدد هذا السلم العنصري بشكل تضافري بفعل التناقض يهودي - آري الذي يعين تحولاً عن الصراع الطبقي . يجذر هذا النموذج الأكثر اكتمالاً النماذج العنصرية التي ترجع إلى العصور الوسطى ويجعلها راهنة(4) . إن هذا النموذج الذي تم تصوره مسبقاً في أدب متكامل منذ مطلع القرن التاسع عشر ، لم يتحقق تماماً إلاَّ مع النازية .

[دلالات النماذج البيضاء] :

تتحدث النماذج البيضاء عن السلطة دون تحديد ماهيتها : سلطة طبقة ، دولة ، امبراطورية ، وتصبح الهيمنة ، التي توصف بأنها عنصرية ، تفوقاً ضرورياً وطبيعياً ومقدساً ، فكما لو أنها مندرجة في نظام الأمور . ويتم التعبير عن التقسيم الدولي للعمل وعن النزاع بين الدول في حدود بيولوجية . وثمة معيار أبيض (وفيما بعد آري) يكون منقوشاً على سطح الكرة الأرضية . يكون هذا النقش تناقضياً (تناقض بين الأبيض وغير الأبيض) ، نموذجياً **Paradigmatique**(5) (التدرج من

(4) راجع : L. Poliakov: Le Mythe aryen, Paris, 1971.

(5) ان Paradigme في القواعد (ما قبل) السوسورية (نسبة الى Saussure) هو الكلمة المثالية التي تُقدَّم كنموذج ، والتي تتم ، انطلاقاً منها ، عمليات النمو (التقهقر ، الانحطاط) والصرف (تهجين ، امتزاج) .

النقي إلى غير النقي) ، أو أنه يمتاز بالاثنين معاً .

يجب هنا التمييز بين ثلاث كيفيات لنقش المعيار في سلسلة تربط الحكم المسبق المستند إلى اللون « بالابعاد » « L'acting out» العنصري . **الكيفية الدلالية** : الكلمات ، التسمية . **الكيفية البرهانية** : الاصبع المنتصب ، التعيين . **الكيفية الذرائعية** : الحركة ، التمييز العنصري .

إن كون النموذج الأبيض لغة لا ينطوي مطلقاً على بقائه خطاباً . فالنقش الاثري ، والمؤلف العلمي ، ونص القانون ، إن كل ذلك يفضي إلى النجمة الصفراء * أو « الاشاعة » ، وهذا ما يؤدي إلى قانون لينش (اعدام بلا محاكمة قانونية) ، أو إلى المعتقل ، أو إلى مذابح استئصال اليهود . تتجاوز هذه اللغة ، بكثير ، ميدان اللغة ، كما تتجاوز ميدان الستراتيجيات ـ ادارة المصالح ـ وميدان الايديولوجيات ـ رؤيات العالم .

منطق النماذج البيضاء

النماذج البيضاء تصنيفية : إن النماذج البيضاء ، التي هي تصنيف للمتغاير انطلاقاً من معيار أبيض هو بمثابة مرجع فعلي وشرعي للقياس ـ وهي نماذج تنبوئية ـ عندما تكون بمثابة جداول مستقبلية للتحولات ، جداول تسمح بفهم مستقبل عرق أو شعب ما ، إن هذه النماذج تتشابه مع النماذج التركيبية العصرية في ادعائها بتحليل كتلة من الوقائع العنصرية مجموعة تجريبياً بواسطة نسق شكلي تم إعداده تعسفياً(6) . ومن

(*) النجمة الصفراء ، علامة فرضها النازيون على اليهود .

(6) « قد يكون النموذج المعين واعياً او غير واع . . . تتدرج النماذج الواعية ـ التي تُسمى عادة =

هنا تنشأ محاولة وضع نماذج لتحليل النماذج البيضاء ، ومحاولة صياغة تعددية تجلياتها . ولذلك نعرض جدولاً بمدخلين . نضع على المحور الأول الكيفيات الثلاث لنقش المعيار (الكلمة ، الاصبع المنتصب ، الحركة) ، وعلى الآخر أنظمة نقش المعيار الثلاثة (Leucon) ، التي يرجع كل منها إلى مكان مميز ، لا يحدد كمتكلم ، بل كمصدر إرسال . هناك : **المعرفة التي تصف** : نصوص علمية ودعائية ، **السلطة التي ترسم** : القوانين المراسيم والقياسات ، **الجماهير التي تسجل** : الحس السليم ، الشائعات .

إنه لمن العبث البحث عن أول نظام للنقش . تترابط وتتضامن وتتبادل الدعم عمليات الوصف واعداد المراسيم والتسجيل ، في كيفياتها الدلالية والبرهانية والذرائعية . ثمة مجموعة من آلات الوصل تؤمن للدائرة سيولتها . وهكذا تؤمن المقدمة لنص القانون الذي يرسم التعليمات قاعدة وصفية . ويحشد الهجاء العنصري تأثيرات المعرفة الوصفية ليوجه الممارسات التسجيلية .

[التعليمات] :

نستهدف ، هنا ، النماذج البيضاء من زاوية أجهزة السلطة ، دون أن نميز فيها ، لكثرة تقاطعها ، الجيش والادارة المدنية والكنيسة ، وفيما يتعدى ذلك ، المزرعة والمنجم والمشغل . نسمي هذه السلطة البيضاء : Leucocratie ، (سلطة الرجل الأبيض) .

= معايير - في عداد الاكثر فقراً ، وذلك بحكم وظيفتها الكامنة في تخليد المعتقدات والعادات وليس في تحليل وعرض دوافعها . C.LEVIS-STRAUSS, «La notion de structure en ethnologie», in Anthropologie structurale, Paris, 1958.

تحديد المعالم :

إن تباين الأنظمة القضائية هو الذي يميز السلطة البيضاء . لا يحق للعبد أبداً ، في جنوبي الولايات المتحدة ante - bellum ، الحصول على ملكيات عقارية أو شخصية . وترجع الثروة التي يمكنه اكتسابها إلى سيده . ويمكن بيعه وتأجيره ورهنه في كل لحظة . ولا يمكنه أن يكون طرفاً في المحكمة . ولا يمكنه أن يعتق نفسه من جديد أو أن يحصل على إمكانية تغيير سيده . ولا يمكنه إبرام أي عقد . إن ظروفه الوراثية أبدية(7) . ومن المهم ، في نظام ثنائي على هذه الدرجة من الصرامة ، أن يكون السكان محددو المعالم بدقة متناهية ليتمكنوا من تحديد من يرجع أم لا إلى هذا النظام . فليس هناك من ظروف وسطية ، كما يدفع خط اللون ، تدريجياً ، بجميع الزنوج نحو شروط العبودية(8) . ولعل المفارقة أن تمتص المجموعة البيضاء الهنود الذين يحتلون فيها مكاناً هامشياً . ولا يرجع هذا الخرق لخط اللون إلى أقدمية إقامة الهنود في الاقليم بقدر ما يرجع إلى الخوف من خطر تحالفهم مع الزنوج . وتعزز الابادة من تهميش الطرف الثالث ، الهنود ، وتعيد التوزع إلى قطبين . لقد لعبت الأقلية البيضاء ، في أفريقيا الجنوبية ، في سنوات 1924 و 1934 ، ورقة الملونين الهنود والآسيويين ، لمواجهة الخطر الأسود . وفيما بعد الحرب تمت مماثلتهم بالزنوج ، مع بعض الفروقات ، وذلك تحت ضغط البيض الصغار(9) . كانت الادارة الاستعمارية الفرنسية أو الانكليزية

---

(7) Michael BANTON: «Les douze lois de stroud» (1856), in socilolgie des relations raciales, Paris, 1971.

(8) المرجع السابق .

(9) المرجع السابق .

تخشى المعارضة : انشأت « السياسة العنصرية » ، التي نادى بها غاليني (Gallieni) ، والنزعة القابيلية (Kaby lisme) مجموعة تلعب دور الصمام أو وصلة بين جماهير السكان الأصليين والمستعمرين ، بواسطة منح الامتيازات . كان تحديد المعالم يستهدف ، إذن ، تحديد نطاق هذه المجموعة (أو المجموعات) الوسيطة .

وضع المعالم :

ينجم العرق عن معايير بيولوجية بقدر ما ينجم عن السياسات العنصرية : نجمع ، تحت نفس اللفظة ، مجموعة اثنيات ، عندما تخضع إلى نفس النظام . وبالمقابل ننشىء داخل المجموعة السكانية المغلوبة حدوداً عرقية من أجل اضعافها . وقد نبتدع ، عند الضرورة ، اعراقاً ، عندما لا تكون موجودة بشكل واضح . إن الاصطباغ يتيح وضع المعالم بسهولة . قبل تعميم العبودية في أميركا الجنوبية كان تمييز العبيد عن الزنوج الأحرار أو المعتقين يستلزم وشم العبد بالحديد . وعندما أقر النظام بتدرج فئوي وفقاً لدرجة الخلاسية ، صارت مفروضة المراقبة الصارمة على الانساب . هذا هو معنى بطاقة الاسناد (reference book) في أفريقيا الجنوبية (التي استخدمت أيضاً من أجل توجيه الحركية) . وعندما لا يكون الانتماء العرقي واضحاً بشكل مباشر ، يؤمن نظام موجز من المؤشرات (صورة نموذجية) وشهادات النقاوة العرقية (شهادة بالانتماء إلى العرق الآري) وإشارة بيانية (النجمة الصفراء) توزيعاً للأشخاص على مجموعاتهم القانونية ـ العرقية .

التنطيق (Zonage) :

تدفع السلطة البيضاء بمنطق كل سلطة إلى حده الأقصى : إنها

تنقل ، وتسجن ، وتنفي ، وتوجه بسهولة أكبر ، لا سيما وأنها تفترض غير البيض خارج أو ضعاف التأقلم ، دائمي التنقل ، ويمكن احضارهم موضعياً . فالافريقي المستعبد ، الذي يعيش في قرية في الجبال ، يمكن ارساله إلى سهل من المستنقعات ، لأنه يُقال عنه أنه « من الرُحل » . وتتطلب الأعمال الكبيرة ، من نوع الكونغو ـ المحيط (Congo-Océan) ، أو أعمال المقطوعية (Tacheronat) البسيطة ، معسكرات للعمل ، يرى فيليكس ايبويه Félix Eboué أن العرق يضعف فيها بفعل الاختلاط والامتزاج . ومع بقاء الهنود الاميركيين وقبائل البانتو في أفريقيا ـ الجنوبية ، والغيتو أو معسكرات الاعتقال ، أصبحت التعليمات جغرافية .

[عمليات الوصف] :

إنها تنظم التجمعات المعدة للاتصال بالشعوب الأخرى وتجيب على التساؤلات التي بقيت معلقة . إن تشوشها لا يضعف مرماها أبداً ، بل إنه أساسي بصرف النظر عن المتطلبات الادراكية لتداول الأفكار . تُسمى هذه المعرفة البيضاء : (Leucologie ، (معرفة الرجل الأبيض) .

المسلمات :

تطرح عمليات الوصف تفاوتاً أصلياً بين الاعراق(10) ، (على الرغم من المعللين الخلاسيين ، كما يقول غوبينو) . كان الهورون (Les Hurons) عاجزين عن ابتكار الآلة البخارية . كما أن الفلاح الابله عاجز أمام السماء . « التفاوت حالة يستمر عمل الطبيعة برعايتها في كل

A. De GOBINEAU: Essai sur l'inégalité des race humaines, Paris, 1853(10)

مكان . ولا ينشأ أي شيء خارق بدون تخصص[11] . يقيم توزيع المزايا تقسيماً كونياً للعمل : للأبيض ، النظام والحرية والمثابرة . أما الأصفر فهو جسور وضعيف ولكنه عملي . في حين يكون الزنجي شره وموسيقي وكثير النسل وغير مستقر . ولا يمكن العبور فيما بين هذه الفئات الغريبة إلى هذا الحد . فلا يمكن تجاوز حاجز المعرفة البيضاء . إن رهان النزاع بين أحاديي السلالة ومتعدديها رهان هام : يكون المثال ، في الواقع ، تعددية فعلية لأصول تُقر ، في النهاية وبدون دقة أخلاقية أو دينية ، التفوق الأبيض في الاختلاف المطلق[12] . إن البياض هو ذلك القانون الذي ينتظم كل شيء انطلاقاً منه . ولكنه يتبدل وفقاً لرغبة المدارس . يتطلب البحث عن النقاء العرقي جهازاً مفاهيمياً مطهراً دوماً . إن تعدد معايير المعرفة البيضاء المغالطة يكيف هذا الجهاز . ومع النزعة الآرية تتناقص أهمية اللون لصالح وجود جوهر ما[13] .

تكون الاعراق منفعلة أو فاعلة (كليم Klemm) ، مذكرة أو مؤنثة (غوبينو) . وانطلاقاً من هذا الأمر تظهر معرفتان بيضاوتان . الأولى معرفة هابطة ترى في الاختلاطات الاثنية (الزواج) سبباً لانحطاط الاعراق انحطاطاً تدريجياً ولكنه انحطاطاً حتمي . يأسف ڤاشي دي لاپوج Vacher de Lapouge على نهاية مستطيل الرأس الأشقر (الآري) المحتومة لصالح الرجل الأصعل (الرجل ذو

---

(11) Houston Stewart CHAMBERLAIN: La genèse du XIXe siècle.

(12) Bouy de saint-Vincent, M.-D. Desmoulins, Thomas Arnold.

(13) آرْيَنَ (Aryanise) بارتيليمي ، في العام 1830 ، السلتيين . وفي العام 1871 نسب أرمان دي كاترفاج اصولاً فنلندية الى الفاتح البروسي . هكذا اذن يندرج وضع الكيانات عبر - التاريخية موضع نقاش في ظرف تاريخي ما . تصنيفات دقيقة أكثر فأكثر ، وتطبيقات مضخمة أكثر فأكثر .

الجمجمة العريفة (السلتي) . تفترض هذه المعرفة حالة بدائية يطرح تنوعها البشري جدولاً بحالات تطورها . لقد اختفى أصلها القديم : هكذا يبدو العرق غير قابل للتحديد ، ولكنه قابل للوصف . وبالمقابل تكتسب الهرمية العرقية ، في المعرفة البيضاء **الصاعدة** دينامية . يقول شامبرلين : « ليس ثمة من عرق إلاّ في تحوله » . فالنقاء رامج ، والتفوق من فعل التقدم . تشدد هذه المدرسة ، بقدر عدائها « للفوضى الاثنية » على فائدة التزاوج الانتقائي « القائم على مادة أولية ممتازة النوعية » و « ممارسة طويلة للزواج الداخلي » ، والتقاء نوعين في ظروف محددة بدقة . ثمة تجارب تاريخية تعطي أفضل مثال على ذلك : الدولة الاثينية والامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية ، وذلك بخلاف « الدول الخلاسية » في أميركا الجنوبية[14] . وفي هذه النظرة لا يكون المرجع عرقاً أصلياً ، بل يكون عرقاً متفوقاً مستقبلياً . هكذا يفسح البحث عن المهد (Urheimat) مكانه للكفاح العنصري : ثمة تحويل إلى واقع يتم وعيه ونضال ضد التسرب (Rassenpest) . تتعسكر النظرية باتجاه تحسين مضبوط للنسل . تمتزج عند روز نبرغ وجهتا النظر : ان المعرفة البيضاء ، الصاعدةوالهابطة ، اللتين يعيق تجريدهما وزمانيتهما تحقيقهما ،تتطهران في معرفة بيضاء مناضلة واكثر اجرائية[15] .

أمور متلازمة

· هناك منهجان لاحصاء الاعراق . يستند الأول ، وهو اجرائي ،

---

(14) كثيراً ما نلاحظ الانزلاق من العرق الى الامة . هكذا يلاحظ شامبرلين ان « نموذج كاراكلا - ضعف الرجل البراق المجرد من الشخصية - لا يسيطر في العرق الانكليزي » .

(15) Alfred ROSENBERG: Das Mythus des ZO. Jahrhunderts, Munich, 1935.

إلى « رياضيات » عرقية . وهو يتناول الأنواع باسقاطه درجة التهجين فيها . « سنبدأ من الخلاسيين . . . ومن بعدهم تأتي الفئة المسماة فئة الجيل الثالث الذي يأتي من زواج الخلاسيات من البيض علماً بأن لونهم يدل عليهم . وتأتي فئة الجيل الرابع من زواج البيض من فئة الجيل الثالث . تأتي أخيراً فئة الجيل الخامس من زواج البيض من فئة الجيل الرابع . وعندما نصل إلى هذه الفئة لا يعود هناك وجود للعرق الزنجي ، ولا نستطيع تمييز الزنوج عن البيض لا بعاداتهم ولا بلونهم . (. . .) يوجد أيضاً بين الخلاسي والزنجي عرق وسطي يسمونه سامبو (Sambo) ، ويولد هذا العرق من تزاوج هذين العرقين من الدم الهندي ، أو من زواجهما من بعضهما البعض . (. . .). ويوجد ما بين فئة الجيل الثالث والخلاسيين ، وما بين فئة الجيل الرابع وفئة الجيل الثالث ، والخ ، من يطلق عليهم اسم (Tente en el Ayre) ، كمن يقول « الأولاد في الهواء »(Les enfants en l'air) ، لأنهم لا يتقدمون ولا يتقهقرون . (. . .) ويسمى الأولاد المولودين من زواج فئة الجيل الرابع أو الخامس من دم الخلاسيين أو دم فئة الجيل الثالث Salto atràs ، أي « قفزة إلى الوراء » (Saut en arrière) ، لأنهم تراجعوا واقتربوا من فئة الزنوج ، بدل أن يتقدموا ليصبح لونهم أبيض ، وكذلك يسمى جميع الأولاد المولودين من زواج الزنجي وحتى فئة الجيل الخامس من دم الهندي سامبو الزنجي أو الخلاسي أو سامبو فئة الجيل الثالث ، والخ[16] .

يخضع الانتماء العرقي ، هو أيضاً ، إلى الحساب : يستلزم الانتقال

---

(16) مذكور في : Racisme et société, Paris, 1969

من العرق الأسود إلى العرق الأبيض أربعة أجيال وما يقارب القرن (پو ، Pauw) أو خمسة أجيال و125 سنة (ويليام ، Wiliams) .

يخلط المنهج الثاني ، وهو « نظري » أكثر من الأول ، الاعراق في سلالة معممة[17] . وهو يعمل على كل الصعد . إنه يعمل على حدود نهرية (الرين le Rhin) أو محيطية . ولكونه شمولي فهو يصيغ القوانين : هكذا يصبح التجاذب والتنافر مثلاً ، عند غوبينو ، محركي كل عمل مُمَدِّن . « فالقبائل الأكثر خسة والأكثر نبلاً » هي ، بالتحديد ، التي تخرق الامتناع عن الزواج من فئات مختلفة . لقد امتزج هنود أميركا الجنوبية والجيوش الاغريقية بالشعوب المغلوبة . يحلل هذا المنهج عن التاريخ البشري : يجب على التحليل أن يغوص - حسب غوبينو - « بجرأة في أكثر ما احتوته العصور القديمة من قدم واسوداد وظلام[18] » . تبالغ هذه التعريفات في الوصف الجغرافي للتنقلات العرقية : المهم هو الحركة . ينحدر النهر الأصفر في أميركا الشمالية عبر مضيق بيرينغ . وهنا تصبح الاستعارة استراتيجية بشكل مقصود . القبائل الصفراء

---

(17) اثبت جوزف غابيل Joseph Gabél ان الامر يتعلق هنا باعادة كتابة تاريخ المرحلة التاريخ الاولى . La Fausse conscience, Paris, 1962 . تجعل العودة الى اسبقية الماضي وضع السكان الاصليين المستعمَرين وضعاً نسبياً . تثبت كلودين ڤيدال كيف تتوافق الابحاث الاتنولوجية حول وضع الهنود البدائي ، حتى عند لويس مورغان (وهو موال للهنود) ، على وضع الاستعمار بين قوسين ، وتسهل بالتالي الانتشار الاندماجوي للنموذج الابيض . «Cahiers Jussieu» no2 Paris,1976.

(18) يبحث المكتشفون ، مع ليڤنغستون وستانلي عن سر القارة السوداء . عند ذلك يصبح المشروع الاستعماري مجرد ايضاح للغز لا يمكن حله ان يكون إلاّ اتنولوجياً . ان تقنية ادغار رايس بوروز وروديارد كيبلينغ اكثر دقة . ان طرزان المنبثق من مغالاة الثقافة الانكلو- ساكسونية يجد نفسه منقولاً الى الطبيعة الدنيا في افريقيا : القرود . تثبت هذه الروايات ، في نفس الوقت التفوق الابيض ، حتى في ارض اجنبية .

الوافرة العدد التي تحيط بالقبائل البيضاء ، والتسرب الأبيض الذي يثير حمية القبائل الهندية . ثمة تركيبة توارثية تجمع الساميين والعبريين والسوريين بالأموريين اليافتيين . وهي تقيم عداوة ما بين إسرائيل ويهودا . وتمتزج وجهتا النظر ، أيضاً ، عند روزنبرغ : تعدل دقة الحسابات من اعتباطية الانتسابات العرقية .

التحقيق :

ينبغي ، بنظر البعض ، قراءة حقيقة العرق في التاريخ الذي لا يتحرك إلا بفعل صراع الاعراق (Rassenkampf)(19) . « كانت نتيجة حقن البنجاب بدم نصف آري ولادة ديانة نانيك Nanek المساواتية » ، هذا ما قاله غوبينو الذي لا يعترف بحضارة سوى الحضارة البيضاء . واذا ما وجدت هناك من معطيات مناقضة لهذا الرأي فهي تُفسر بوجود خفي لانوية آرية عند الصينيين او المصريين مثلاً . فالمؤسسات نتاج الاعراق . اعطى ليسورغ وفرديناند الاسباني لشعبيهما شرائع تلائمهما . يذكر شامبرلين الألماني مؤسس الحرية في الدولة ، وهي حرية اليها يعود « انقاذ الانسانية المنازعة ، وقد انتُشلت بذلك من براثن الحيوانية الازلية » . ويقابله بنقيضه « الشيوعي - المحارب » (الرومان) او الديمقراطي - الفردي (اليونان) . تتحقق الفرضية بالخُلف : واذا كان الصفر والآريون والسلافيون لم يطردوا من سهوبهم ، فذلك لأن « هناك شيء من العناية الالهية ، او شيء قدري في القوانين التي تؤدي الى الامتزاجات الاتنية » يعمل بحيث تكون النتيجة هي نفسها ، على مر الزمن . يصح هذا الامر اكثر ايضاً مع الداروينية -

---

(19) راجع : Gumplovicz

الاجتماعية التي تطرح انتقائية عرقية جذرية الى حد لا تبقى معه ولا تتكيف إلاّ الاعراق القوية . ان التفوق الابيض هو بالتحديد الذي يشهد على تماسك هذه النظرية التي تصطدم قدرتها التفسيرية بحيوية الاعراق غير البيضاء .

ان تعقيد المظاهر سيطمس دوماً جوهر النقاء ، يقول شامبرلين : « ان المعرفة نافعة بالطبع في هذه المادة ، انما الامر الذي لا يستغنى عنه يكمن في ان يرى المرء كثيراً ويشعر كثيراً » . يجعل بول دي لاغاردPaul de Lagarde الاعراق مختصة بذهنيات محددة ، يعارض هذه المعرفة البيضاء المثالية(20) اتباع معرفة بيضاء شبه ـ مادية ، والذين يبنون الانتروبولوجيا على البنية التحتية للاجسام : الجمجمة ، السحنة ، الاسنان ، البشرة ، الجلد ، الدم ، الاصوات . ينبش فاشي دي لا بوج ، مثلاً ، مدافن مقبرة مونبيلييه . ويلاحظ ان جماجم الفئات العليا تظهر علامة في الرأس ، وهي 74,8 مقابل 78,3 في المقابر العادية . اكتشف امون Ammon ، اثناء قياسه جماجم اغرار الجيش في بادن فروقات بين ابناء الريف وابناء المدينة : 85 و80 . وهكذا تضاعف المدرسة الانتروبولوجية ـ الاجتماعية الابحاث وتضع القوانين . سيمزج منظرو المعرفة البيضاء النازيون هاتين الطريقتين في التحقيق . يبرر المنهج التاريخي ـ الاستنتاجي ، بمرونته القصوى ، الفتوحات والالحاقات والتهجير او التحالفات : سنكتشف ايضاً اسهاماً آرياً عند

(20) «L'esthétisme racial du héros nordique chez Alfred Rosenberg» : انه يقابل ما بين مولتك وويلنغتون وبين سانشو بانسا . او لدى بيير لوتي Pierre Loti ، حيث يعرض « رونق الأبنوس الملمع » في اخراج عنصري .

الايطاليين واليابانيين . يحدد المنهج التجريبي التقنيات الفاعلة بغية تنقية السكان .

النقل .

ان الــرأي العــام هو في اســاس كل حس سليم ابيض : leucodoxie * .

وهو يتجلى بصيغة الحقيقة المثبتة التي تكاد تذهب مذهب الأمثال : اليهودي متفوق ثقافياً ووصولي وتاجر ، بخلاف الشغيلة الحقيقيين المنخرطين في شبكات الغابة الاجتماعية اللاانسانية .

تثقيف

ان جعل كلمة (اليهودي) ذات مضمـون جماعـي هو مؤشر الى البحث عن جوهر مجرد سيفسح المجال فعلاً للاستثناءات (اليهـودي الطيب ، العربي الشغيل) او للفروقات (ابن فولتا العليا اقل كسلاً من ابن السنغال) . يستند هذا التحكيم ، وهو خبرة حقيقية منبعثة من التجربة الفردية او المحلية ، الى الحدث المتنـوع . يمـر استقـراء الحالات الخاصة بعرق ما ، في الواقع ، بتحويل التاريخ الى حكايات صغـيرة . تؤمـن الصحافـة المعـادية للاجانـب ، مثـل بيلازا يتونـغ Bildzeitung أو لوميريديونال (Le Méridional) ، هذا التداول ؛ الا ان هناك حلقات أخرى ، غير منظورة ومتشعبة تشعباً غريباً، تنقل هذا الحس السليم الأبيض. يخفي منطق الاحكام المحكم البناء النقص في التفكير . انها قاعدة علم التناقض [21] : الأجنبي هو ، في نفس الوقت ،

(*) leucodoxie: leucó تعني ابيض ، doxie تعني رأي (المترجم) .

(21) يلاحظ رودولف لوفنستاين Rudolf LOWENSTEIN الطابع السادي ـ الشرجي للغرائز =

جرثومة طفيلية ومحتل مخيف ، العربي متشاوف ومجامل ، اليهودي مخادع ومتغطرس ، الزنجي منحط وبالغ القوة . انها قاعدة الفصل التي تقسم جوهر الظاهرة : لا يهمني كثيراً ما هم عليه ، ولكني أرفض أعمالهم . ثمة صيغة علمية بشكل مغلوط تنوب عن الصيغة التعسفية - انها شرطية تنسخ دقة القوانين الفيزيائية : دعوا الزنوج يترددون الى مدارسنا ، عندها . . أو ثمة اجتماعوية مبتذلة : هكذا تصبح النسبة المقبولة للأجانب في كتلة سكانية ما ، بعد استعادتها في مقولة الذوبان الايديولوجية : اما هم أو نحن ، ذلك انهم يكتسحوننا .

محكمة .

ان هذه التعددية في التعليمات والتحقيقات والتحليلات تتجاوز نفسها وتتحقق في منازعات مع بعضها البعض ، ان ما نشير اليه لدى الآخر هو نقيصة بقدر ما خطأ . ان حضور الاجنبي في كل مكان وتعدد مواهبه ترهق الابيض الصغير . وهذا ما يشكل مرادفاً للحركية الاجتماعية وتحرراً طوباوياً من القيود . انه امر لا يطاق . يجب التحقق من صحة الحضور الكلي والخفي للآخر بعد توقعه واستشعاره . وتكبر صعوبة هذا التحقق لا سيا وان علامات هذا الحضور ليست جلية دوماً . ان هاجس التفصيل التشريحي - الملائم من حيث التحليل النفسي - يقيم تسلطاً تصنيفياً(22) . ولن نخلط ابداً بين الفيتنامي والتايلادي ، بين الانتيلي والافريقي . بالعكس ، سنبدي استهتاراً جذرياً بالقارة الاصل ، في معرض التعميم : الكل متشابهون ، تعمل

= الجنسية المتناوبة مع اسقاط مثال مكبوت للانا على الموضوع . Psychanalyse de l'antisémitisme, F'rancfort, 1968.

(22) Gérard MILLER: Les Pousse-au-jouir du Maréchal Pétain, Paris, 1976.

المحكمة العنصرية في حقل واسع بقدر ما هو ملتبس . ويصبح كل شيء علامة خاصة ، وعنصراً للاقناع ، وبرهاناً فعالاً . وتعبأ كل « الحواس البعيدة المدى » . النظر ، بالطبع ، وهو يعين شحمة الاذن المشبوهة او الشفة الهدلاء . والشم ، ايضاً ، الذي يسمح « باشتمام » اليهودي او الخلاسي ، على بعد مئة متراً . ثمة لكنة تُدرك ، وذلك حتى النبرات الملتبسة في صوت ما . هكذا يتعقلن الفرز : نلاحق اللقب ونفك رموز الاسرة . ان « الضجة » هي تلك القضية المتحركة ، العسيرة الادراك ، العامة ، ولكنها غير مكشوفة[23] . وغالباً ما تأتي بلورتها حول حدث حقيقي او استيهامي ، بالتحديد من البنية الحقوقية لعلم الاعراض . Sémiologie المعمم . انها قضية ابطالها مكثفون (المباشر ، المدعي العام ، هيئة المحلفين ، التحري) واحكامها معادة على نطاق واسع : انها نقش اثري .

العقوبة .

ان غير البيض ، المسؤولين جماعياً عن الهزيمة والتضخم والبطالة وعجز الضمان الاجتماعي وقذارة الشوارع او الانحراف ، متهمون بالقوة ، بجرم يبدأ من اقلاق راحة النائمين حتى الجريمة الجنسية . ثمة تشريعات قديمة ومستويات في العقوبة وتقنيات في التعبئة العامة ، اي ثقافة شعبية بكاملها يُعاد تنشيطها دون ان نضطر دوماً لالصاقها باية اثارة مغرية[24] . ان جمعية كلو- كلوكس - كلان الاميركية الموجهة ضد السود هي هذه الحالة المتطرفة حيث الطاقة الناقلة تحل علناً وبشكل دائم مكان السلطة الشرعية ، بعد تحولها بشدة الى مصاف الطقوس . ففي الحركة

Edgar MORIN: La rumeur d'Orléans, Paris, 1969 : (24)–(23)

الجماهيرية للمعرفة البيضاء ، وفي هذا الانتقال الى الفعل ، يمكننا قراءة مغالاة غرائـزية وجنسية ، وكذلك ايضـاً ، طاقـات مبـادرة واستنبـاط وتنظيم جماعية . ثمة فيض عقلي وفيض سلطوي يجد فيه منظرو المعرفة البيضاء اثباتاً لنظريتهم ، ذلك ان الجماهير تلفظ غير الابيض ، « بشكل طبيعي » ، « بالغريزة » .

غير ان هذا الانتقال الى الفعل يقلب تصنيفاتهم المخبرية . تعتمد اجهزة السلطة على الاحراجات العنصرية شرط ضبطها ، لكنها تخشى هذا الاختبار الجماعي شبه الانتفـاضي . فماذا اذا بدّل هذا الاختبـار موضوعـه ؟ اذا استطـاع المعـادون للعنصرية تحميل مسـؤولية هاجس اللون لمناورات ايديولوجية ، فهم يجـدون صعوبـة في تبـرير الافعـال العنصرية الجماعية . ذلك ان الصفات الحسنة المبذولة ، والمضلّـلة ، في ذبح اليهود واعمال الاعدام من دون محاكمة قانونية ، هي نفسها التـي يتمنى المعادون للعنصرية ان توضع عملياً في خدمة « قضايا عادلة » .

ملحق .

(أ) ـ هكذا يبقى التناقض يونان ـ برابرة جزئياً . وهو يشـير الى تفوق في الحضارة او المؤسسات ، وليس في العـرق . على كل حال ، نوع هيرودوت وتوسيدير هذا التفوق اليوناني ، الاول باثباته الاصـل المصري للآلهة والاجداد والحكمة والعلم في اليونـان ، وبتركيزه، على فضائل الشعوب المجاورة ؛ والثاني بمقارنتـه نمـط الحياة عنـد البرابـرة واليونان القدامى . يجب انتظار القرن الرابع ، مع وضع ارسطو نظرية الشعوب ـ العبيد ، حتى نجد تناقضاً عنصرياً بكل معنى الكلمة .

(ب) ـ ان وضع « العرق » هو كوضع « العمل » .

« ان المقولات الاكثر تجريدية ، رغم كونها قيمة . . . في كل العصور ، ليست مع ذلك . . . إلاّ نتيجة اوضاع تاريخية ، ولا تصح تماماً الا بالنسبة لهذه الظروف وفي اطارها . ان المجتمع البرجوازي هو التنظيم التاريخي للانتاج الاكثر تطوراً وتنوعاً في التاريخ . وبناءً على ذلك ، فان المقولات التي تعبر عن علاقات هذا المجتمع وتسمح بفهم بنيته ، تسمح في الوقت نفسه بالوقوف على بنية وعلاقات الانتاج في جميع اشكال المجتمع البائدة مع الانقاض والعناصر التي بُني عليها هذا المجتمع ، والتي ما يزال بعض آثارها ، التي لم يتم تخطيها إلاّ جزئياً ، باقية فيه ، والتي اتخذت بعض رموزها ، نتيجة لتطورها ، معناها الكامل » (ك . ماركس : مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي) .

المراجع

BANTON (M.): Sociologie des relations raciales, Paris, 1971.

FAYE (J.P.): Langages totalitaires, Paris, 1972.

POLIAKOU: Le Mythe aryen, Paris, 1971.

POLIAKOU: Racisme et Société, Paris, 1969.

4 ـ من الارض الى القمر

بقلم رافاييل بيفيدال

رصد غاليلي السماء في السابع من كانون الثاني 1610 ، بواسطة منظار صنعه بنفسه انطلاقاً من عدسات مصقولة في مورانو ، احد احياء البندقية ، المدينة التي كان يحتل فيها كرسي رياضيات ؛ وفي 20 تموز 1969 نزل أرمسترونغ على القمر . يبدو هذان الحدثان بمثابة جزء من تاريخ واحد ، ويبدو غاليلي ، بنظر البعض ، كمن خطى الخطوة الصغيرة التي مكنت ارمسترونغ من « تحقيق اكبر خطوة اجتازتها البشرية » . بوسعنا التساؤل ان كان المقصود نفس التاريخ حقاً ، وان كانت الخطوة الاولى و « الخطوة الاكبر » خطوتين لنفس البشرية . والحال ، اذا ما نظرنا ملياً في الموضوع ، لرأينا ان روح غاليلي تختلف تماماً عن روح ارمسترونغ ، لقد فتح غاليلي طريقاً ربما انغلقت من بعده .

حيَّت انتصار ارمسترونغ ، عام 1969 ، آلاف صرخات التمجيد : « رائع ، مذهل ، خارق » ، بينما استُقبل غاليلي بالتشكيك والنكران فقط . سيقول المتحمسون ان الانسان تقدم ، وان مجتمعنا اليوم اكثر تحرراً مما كان عليه في القرن السابع عشر ، وان الافكار تفتحت على العلم . ان تقبل مثل فكرة تقبل البشرية او تحسن المجتمع

هو ، بالتحديد ، انقاص لما يجعل غاليلي عظيماً : انها الريبة تجاه الافكار الموروثة ، وتقاليد الملاحظة والنقد ، والنزعة الى البرهان .

لم يكن غاليلي بالتأكيد رجلاً مخرباً : ولكنه لم يكن يتوقع ان يواجه العداء الذي لقيه من جراء مساندته نظام كوبرنيك ضد نظام بطليموس . وعندما نشر ملاحظاته عن السماء ، لم يكن يعتقد ، مطلقاً ، انه لن يُصدَّق . ولكنه كان يعلم ان جيوردانو برونو كان قد حُرق بامر من محكمة التفتيش ، عام1600 ، وذلك بسبب تأييده افكار كوبرنيك وتأكيده تعدد العوالم . كان الرصد التجريبي الذي تم بواسطة منظار يبدو لغاليلي شيئاً ثابتاً ؛ ومع ذلك فانه رُفض . وبغية اقناع القضاة الاول (Doges) في البندقية بمزايا منظاره جعلهم غاليلي يراقبون اشرعة السفن البعيدة المتوجهة صوب المرفأ . كان من الصعب التصور ان بوسع عدسة جعل الاشياء اكثر وضوحاً ، وان بوسعها خاصة تقريب السماء . كان لا بد من تلقين جديد للرؤية . لم تقبل محكمة التفتيش باكتشاف الكواكب التابعة للمشتري وجبال القمر واوجه الزهرة . ونكرت امكانية تعديل الرؤية التقليدية للسماء ، وارجعت اكتشافات غاليلي الى شوائب اداته ورفضت ، خاصة ، الاعتراف بقدرة امور من هذا النوع على اثبات جودة نظام كوبرنيك . كانت جرأة غاليلي في انه ينقض على السماء كما لو كانت قطعة قماش نراقبها بالمكبر ونكتشف حبكتها ونعد خيوطها . وكان غاليلي يستنتج من هذه الظواهر الجديدة ، التي كان وحده يراها ، اثباتاً لنظرية جديدة ، لنظام جديد للكون . هكذا كان غاليلي يعدل العلاقة بالاشياء . كان يدخل ممارسة جديدة وطريقة جديدة في التفكير ؛ وكان يفضل على الحقائق الواردة في الكتب دروس الاشياء ؛ وبهذا المعنى كان غاليلي ما

يزال رجلاً من عصر النهضة ، اي مراقباً تجريبياً يبني نظريات انطلاقاً مما كان يراه . ولـم يكن بوسعـه إلاّ الاصطـدام برجـال الحـركة المضـادة للاصلاح ، بالرجال المنبثقين من مجمع ترانـت . ان المسألـة بكاملهـا تكمن في معرفة ما اذا كان ارمسترونغ وارث غاليلي ام وارث الكاردينال بيلارمين .

عندما وطيء ارمسترونغ القمر الذي رصده غاليلي كان الموضوع هو نفسه ، بيد ان الموقف كان معكوساً تقريباً . حصل الامر ضمن اتفاق كوني ، طار ارمسترونغ الى القمر بوصفه بابا نويل اميركي ، وفضلاً عن انه لم يعارض سلطة الكنيسة والدولة فانه حظي بمساندتهما ومباركتهما . لا بد اذن من الاعتقاد بواحد من امرين : اما ان الدولة والكنيسة قد تغيرتا فعلاً ، واما ان تجربة القمر لم يعد لهـا اليوم ، على الاطـلاق ، اهمية الحقيقة والبرهان التي كانت لها في القرن السابع عشر .

طار ارمسترونغ ورفاقه الى القمـر في مهمـة مأمـورة ، فالحكومـة الاميركية هي التي اقرت سفرهـم : انشد رواد الفضاء المزامير (خاصة المزمور الاول من سفر التكوين) ، وزرعوا العلم الاميركي على سطح القمر ، وتحدثوا بامور متداولة وبافكار موروثة . لا يقدم سلوك هؤلاء الرجال على سطح القمر اي مثل عن ممارسـة جديدة : لقـد تصرفـوا كآليات ثقيلة . ولا يذكرنا اي شيء في سلوكهـم بالملاحظـات المرهفـة والتجارب الدقيقة عند ليوناردو دي فنشي اوغاليلي . لـم يكن هذا الامر خال من الاهمية ، اذ ان التلفزيون الاميركي اظهر للعالـم اجمـع تلك التصرفات التافهة على انها « اهـم حدث علمـي على مرّ الزمـن » . ان المشهد الذي قدمه لنا التلفزيون ، وهو نوع من راصدة عجيبة ، هو على

العموم تافه جداً : رجل يمشي ويجمع الحجارة عشوائياً .

ان تجربة غاليلي وتجربة ارمسترونغ تختلفان في نقطة واحدة : نقطة الفرضيات . عندما وجه غاليلي منظاره الى السماء كان يبحث عن برهان على نظرية ما ، ويريد الحسم بين فرضيتين ، بل بين تصورين للكون . ولكنا لا نرى اي شيء من هذا القبيل في فعل ارمسترونغ ، فالفرضيات التي طُرحث ، عام1969 ، حول القمر ، كانت ذات منفعة متواضعة (سنرجع فيما بعد الى هذه الفرضيات) . ان الهبوط على سطح القمر حدث مذهل ، بالطبع (علماً بان كثيرين قد خاب ظنهم لدى مقارنتهم هذا المشهد بذاك الذي كانوا قد تخيلوه) . ولكن ذلك لا يمنع ان يكون المقصود حدثاً اقل اهمية من حيث النظرية .

ربما ليس من العبث ، قبل بحث مسألة الفرضيات ، ان نروي قصة ما يسمى « غزو الفضاء » . يجب تسلق الشجرة التي تؤدي الى الرماية على القمر ؛ ان لهذه الشجرة فروع عديدة ، يعني تاريخ الافكار ، بالتأكيد ، وربما تاريخ اقدم الصواريخ الصينية ، ولكن جذعها وجذرها هو علم القذائف الحديث : المدفعية . اننا نحسم الامر هنا بسرعة ، اذ ان الكثير من الكتاب يرجعون « غزو الفضاء » الى مصر القديمة ، مروراً بالصين واليونان ، ويعرجون على هنود اميركا الجنوبية الحمر ، ويعترفون بمزايا العلم العربي ويحييون الجنوبيون القدماء ، ولا ينسون ارخميدوس وحصار سيراكوز ، بيد انهم يتجاهلون اهمية المدافع في جميع المعارك ، منذ القرن الخامس عشر . كان جول فرن اكثر جدية في روايته « من الارض الى السماء » عندما يرجع الاصل المباشر لاول رحلة نحو قمرنا الى حرب الانفصال الاميركية والتطور المذهل للاسلحة

النارية اثناء الصراع . لقد ولدت فكرة ارسال قذيفة مدفع الى القمر في نادٍ للمدفعيين المتقاعدين والخبراء في علم القذائف ، في نادٍ لهواة جمع المدافع .

كان جول ڤرن يحلم ، وهذا امر معروف جيداً ؛ وفي الحقيقة لا يرجع اصل غزو الفضاء الى حرب الانفصال الاميركية ، بل الى الحرب العالمية الثانية . ففي3 تشرين الاول1942 ، اخترق صاروخ أ4 (اغريغات4) (agregät 4- A4) الموجه من بعيد ، للمرة الاولى ، جدار الصوت ، وهو يجتاز مسافة192 كلم . كان هذا الانجاز من صنع احد وزراء المانيا النازية ، البير سبير ، والجنرال والتر دور نبرغر ، والمهندس ورنرڤون براون . وفي25 تموز1943 ، اصدر هتلر امراً بتصنيع صواريخ 2 (V2) بغية تدمير لندن ، وتتطور صناعة الصواريخ في شبه جزيرة بينموند ، لتدمر القاعدة في آب1943 بقصف انكليزي ، ثمة عقول سيئة قد تقول ان التقدم العلمي تلقى ضربة جدية في ذلك اليوم . غير ان التصنيع استؤنف في منطقة هارز في وسط المانيا بالقرب من مدينة نوردهاوزن ؛ كان المنفيون يشكلون اليد العاملة ، وكانت قاعدة البناء معسكراً للاعتقال في دورا ، وهو معسكر محفور في انفاق منجم قديم لسولفات الصوديوم . لقد مات اكثر من ثلاثين الف مبعداً في دورا التي حررتها القوات الاميركية ، عام1945 . واستأنف العلماء الذين كانوا في نورهاوزن العمل في اميركا . هكذا اصبح الجنرال والتر دور نبرغر مستشاراً في ميدان الصواريخ لدى الطيران الاميركي . اما ڤون براون ، الذي وجد في دورا ، فقد لعب ، من جهته ، دوراً رئيسياً في تحقيق برنامج الفضاء الاميركي . نحن مقتنعون ان الطريقة البشعة التي ولدت فيها الصواريخ الاولى يجب ان لا تغشي

رحلة ارمسترونغ الرائعة . ولكن هذا لا يمنع ان يكون تاريخ الصواريخ كله مرتبطاً بتاريخ الحرب .

لم يتوقف البحث في ميدان الصواريخ لحظة واحدة ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . تطور هذا البحث ، في المناخ السري للحرب الباردة ، وارتبط مفهوم اللغز ، مجدداً ، بمفهوم العلم ، كما في زمن بيتاغور او في عصر الكيمياء القديمة (alchimie) . واعتادت الشعوب على فكرة ان الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يعرفان الحقيقة ويخفيانها . اثر ذلك تستر العلم بالكذب .

وما كادت تنقضي اثنتي عشرة سنة على الحرب العالمية الثانية ، وفي الرابع من تشرين الاول 1957 ، وبعد سنة على احداث بودابست ، وضع الاتحاد السوفييتي اول قمر صناعي ، سبوتنك ، على مداره حول الارض (سبوتنك تعني في الروسية قمراً صناعياً) . يزن الصاروخ 84 كلغ : يظهر هذا الوزن القدرة العظيمة للصواريخ السوفييتية .

قد يكون مملاً السرد التفصيلي لمغامرات المنافسة التي تجابهت فيها الامبراطوريتان السوفييتية والاميركية ، في حقل الفضاء . فشل الاميركيون ، في البداية ، فشلاً يكاد يكون مضحكاً ، في تجارب الاطلاق . وفي مدى اثنتي عشرة سنة (الزمن الذي يفصل ارسال سبوتنك عن الهبوط على سطح القمر ، في زمن حرب الجزائر وفيتنام واحداث كوبا وبراغ) عوّض الاميركيون تأخرهم وتخطوا السوفييت . كانت الحرب في ذلك الوقت تدور ، فعلياً ، في هذا المجال ، انها حرب استراتيجية ، بخاصة حرب اقتصادية ، اذ كان كل من الفريقين يسعى الى اضعاف الآخر بالمصاريف الكمالية .

كان رهان الصراع سياسياً ، مع انه كان يجري بتحسينات تقنية وبتصويب الرماية على هدف حيادي . كانت هاتان القوتان تستفيدان افادة دعائية ضخمة من هذه المبارزة في حقل الفضاء . لقد سمحت السماء ، وقد اصبحت مسرحاً ، بلعبة الدمى المتحركة والألعاب النارية . هذا في حين يصفق نادي الصحافة بهتافات عالية عندما تقترب نهاية الارسال . وتتواصل نفس المعركة على حلبة سيرك « الالعاب الاولمبية في الازمنة الحديثة » ، حيث يتجابه ابطال الشرق وابطال الغرب كل اربع سنوات . هكذا نكون امام الرياضة المحددة نفسها ، ونفس الرجال الذين يكيفهم تدريب صارم ، ونفس التصفيق من جانب الصحافة . هذا في حين يترك التلفزيون لهذه المشاهد مجالاً واسعاً ؛ نشاهد عليه كل ما يمكن عرضه ، وبعد احتفالات ذات طابع عسكري ، توزع شهادات البطولة . يزيد كل انتصار من هيبة الامم ، وتغشي كل هزيمة من بريقها . هذا هو انتصار « مركزية الدولة » . تستهوي هذه الانتصارات وتلك الهزائم ، والتي يتم التوصل اليها بعملية حسابية بسيطة وباللعب على الارقام ، جماهيراً واسعة وجموعاً مجتمعة . اننا ننسى ، في رياضة الامم ، الطبقات والفوارق الاجتماعية ، ولهذا لا يهمل الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة التأثير الذي تحدثه انتصارات ابطالهما على حلفائهما وعلى شعبيهما . لقد وجدت القومية طاقة جديدة بتطورها في الفضاء .

اصبحت السماء حقل مناورات تتدرب فيه افواج من الصواريخ التي تهدىء بمآثرها النزاعات الداخلية وتنزع فتيل المعارك الحدودية . يبقى تاريخ « غزو الفضاء » ، من جراء ذلك ، مطبوعاً بما يربطه بالامم . ثمة ما يجبرنا ، اذن ، على العودة الى تصنيف الدول وفق

محاولاتها لزيارة النظام الشمسي . ان يكون الصاروخ الذي وطيء المريخ او الزهرة قبل غيره اميركياً او سوفييتياً ، فهذا امر لا اهمية حقيقية له ؛ يقدم الوصول الى المريخ او الزهرة للمصارع صعوبات مشابهة .

تشرين الاول 1957 : اول قمر صناعي (سوفييتي) .
نيسان 1961 : اول تحليق بشري على مدار ارضي (غاغارين) .
لن ينطلق جون غلين (اميركي) إلاّ بعد 10 اشهر .

تشرين الاول 1964 : وُضع ثلاثة مواطنين سوفييت على مدار حول الارض . صاروخ « فوسخود » .

28 تشرين الثاني 1964 : مارينر 4 (اميركية) تحلق فوق كوكب المريخ على مسافة 10000 كلم .

آذار 1965 : يترك الكسيس ليونوف عربته فوسخود ـ 2 (سوفييتي) .

3 شباط 1966 : اول هبوط على سطح القمر (لونا ـ 9 ، سوفييتية) .
16 اذار 1966 : اقتران قمرين صناعيين (جيميني ـ اميركية) .

آذار 1966 : اول قمر صناعي حول القمر (لونا ـ 10 ، سوفييتية) .
12 حزيران 1967 : فينوس 40 (سوفييتية) تحط على سطح الزهرة .

20 تموز 1929 : هبوط ارمسترونغ وألدرين على سطح القمر بواسطة العربة ابولو ـ 11 (اميركية) .

30 ايار 1971 : مارينر ـ9 (اميركية ، تدور حول المريخ وتلتقط اكثر من 7000 صورة) .

2 كانون الاول 1971 : مارس ـ3 (سوفييتية) تحط على سطح المريخ ، وتبث معلومات خلال عشرين ثانية .

3 اذار 1972 : بيونير ـ10 (اميركية) تحلق فوق المشتري ، على مسافة 130400 كلم .

3 تشرين الثاني 1973 : مارينر ـ10 (اميركية) تحلق فوق الزهرة وعطارد .

تموز 1976 : ڤايكنغ (اميركية) تحط برفق على سطح المريخ .

تسلسل الرحلات الى القمر بعد الرحلة الاساسية :

تشرين الثاني 1969 : ابولو ـ12 ، وصول LEM حتى اوسيانوس بروسيلاروم (Oceanus Procellarum) .

ابولو ـ13 . عطل كهربائي

ابولو ـ14 (كانون الثاني 1971) . منطقة فرامورو Fra Mauro رحلة على عربة ذات دولابين .

ابولو ـ15 (تموز 1971) . منطقة ابينين . عربة روڤر .

ابولو ـ16 . هضبة ديكارت (نيسان 1972) .

ابولو ـ17 (كانون الاول 1972) . منطقة طوروس ـ ليتروڤ .

يظهر هذا التسلسل كيف اصبح كل كوكب رهان سباق بين امتين . ما يزال كل حدث ، حتى اليوم ، يُستذكر من خلال الكوكب

الذي استُخدمت ساحته والدولة التي اوجدته (الحدث) ، اكثر مما يُستذكر باهميته العلمية الفعلية . تتميز مراحل « غزو الفضاء » ، في الواقع ، بتقديم حل لصعوبة فنية ما ، اكثر مما تتميز « بغزو » هذا الكوكب او ذاك . بوسعنا تميز ثلاثة نماذج من الصعوبات التي حلّت بعد سلسلة محاولات . اولاً ، كان المقصود اخراج عربة من الجاذبية الارضية . هذه هي المشكلة التي تطرحها الصواريخ ، وبخاصة اختراع وقود قادر على تقديم طاقة عظيمة (البروبوغول ـPropergol) . تتعلق الصعوبة الثانية بدقة القذف . وهذه مسألة حسابية ، ولكنها مسألة اتقان في القياسات ؛ يتطلب تعدد المعطيات استخدام الناظمات الآلية ؛ وهذه ايضاً مسألة الكترونية . واخيراً ، تستتبع ضرورة تصحيح المسارات والقيادة المريحة مشاكل في التوجيه عن بعد ، وبالتالي تطوراً في علم التوجيه . وهذا ما يطرح نموذجاً آخر من الصعوبات كتلك التي تثيرها التعليمات والرموز ونقل الرسائل .

يجب ان نضيف الى هذه الصعوبات العقبات المتعددة التي لا بد من تخطيها بمعرفة المعادن ومقاومتها للاحتكاك والحرارة . هناك ايضاً مشاكل فيزيولوجية ، وحتى نفسية ، وذلك عندما يتعلق الامر بارسال بشرٍ الى الفضاء . اذاً ، فالمستوى الفني الرفيع جداً هو وحده الذي يمكّن من اطلاق عربة الى الفضاء .

يبدو ان التقدم السوفياتي كان يعتمد خاصةً على تفوق في تعاطي الصواريخ واستخدام الوقود« لنتذكر اانه منذ1929 ، كان يوجد في موسكو « تجمع للدراسات حول الدفع بالارتكاس » . بالمقابل ، برهن الاميركيون فيما بعد على سيطرتهم المتفوقة جداً في ميدان التوجيه والاتصالات اللاسلكية . ان اختلاف درجة تطور التكنولوجيات

السوفياتية والاميركية (اتقان اكبر للالكترونيك في الولايات المتحدة) يعبِّر بالتأكيد عن اختلاف طرق الانتاج بين الامتين . غير اننا نُدهش في هذا الوقت بتشابه المشروعين وتشابه الاهداف المتبعة (وحتى احياناً الوسائل المستخدمة) . في الحالتين ، يبدو ان تدخل الدولة في تنظيم البحث قد كان سائداً .

واذا ما صرفنا النظر عن المظهر الستراتيجي الذي ارتداه « غزو الفضاء » ، فلا مجال لنكران ان هذا الغزو يقدم فائدة علمية . ما هي هذه الفائدة ؟ وكيف نقيسها ان لم يكن بتحليل الفرضيات التي صدرت والاجوبة التي قدمتها لها تلك الرحلات ؟ بوسعنا كذلك ان نتساءل اذا كان وجود الانسان ضرورياً للتحقق من تلك الفرضيات .

عندما أُقر برنامج ابولو للهبوط على القمر ، كانت الفرضيات المطروحة ذات انماط متعددة . كان البعض منها يعني الطبيعة الحالية لهذا الكوكب . ثمة طرحان كانا يتواجهان ؛ طرح انصار « القمر الحار » وطرح انصار « القمر البارد » . كان انصار الطرح الاول يزعمون ان وسط القمر مثل وسط الارض مكوَّن من صخور في حالة ذوبان ، معتمدين على ملاحظة ما كانوا يعتبرونه اشارة الى نشاط بركاني ؛ اما الباقون فكانوا ينكرون كل نشاط بركاني قمري ويؤكدون على طبيعته المكونة من ملح حامض السيلينيوم والبارد منذ زمن بعيد . قد تحسم المسألة الآن لتسجيل الزلازل بعد تركيزها على سطح القمر .

كانت فرضيات اخرى تتناول عمر القمر وبالتالي اصله . اذا كنا نعرف عمر النظام الشمسي (انطلاقاً من دراسة النيازك) واذا كنا نعرف كذلك عمر الارض ، فاننا نجهل في اي وقت تكوّن القمر . وحده

تحليل الصخور القمرية بوسعه ان يرشدنا حول الموضوع . هكذا ، كان العلماء يأملون جمع حصى معاصرة للحقبة التي تكوّن فيها النظام الشمسي .

اخيراً ، كان الباحثون يطرحون على انفسهم دوماً مسألة امكانية وجود اجسام حية على القمر (نعرف ان هذا الاحتمال ضئيل جداً) او على الاقل اثار متحجرة لتلك الحياة . بصفة عامة ، كنا نأمل ان تسمح الدراسة الجيولوجية لقمرنا بمعرفة افضل للارض .

لم يكن بوسع هذه الاسئلة المختلفة ايجاد جواب إلا بالدراسة الفعلية لصخور قمرية ؛ كان المقصود اذاً جلب بعض منها . اضافة الى ذلك ، كان القمر يظهر كمرصد مثالي لسبر السماء لأن جو الارض يعيق افضل الراصدات اعاقة كبرى ؛ بعض الظواهر لا يمكن دراستها إلا خارج هذا الجو ، الاشعاع الكوني مثلاً . فالقمر بفعل وزنه الخفيف ، خالٍ من الجو ؛ ويتيح بذلك سبراً كاملاً للسماء والشمس .

كان القمر محيِّراً بوزنه الهام بالنسبة له ككوكب تابع وبسطحه المزخرف بالفوهات (جو الزهرة الكثيف يجعل رصد سطحه مستحيلاً وعندها لم يكن المريخ قد صُوِّر بعد عن كثب) ، قمر اسطوري كان يسمح بأن تحاك حول موضوعه اكثر الفرضيات جنوناً ؛ ألَم يكن يقال انه كتلة انتُزعت من الارض وتركت مكانها المحيط الهادي ؟ الَم يكن يقال ايضاً انه كان كوكباً تائهاً اجتذبته الكرة الارضية ؟ لقد اتاحت دراسة الصخور القمرية التي جلبتها سائر مهمات ابولو الحسم ، جزئياً ، بين الفرضيات . ولكن في الحقيقة ، لم تحمل تلك الدراسة اية فكرة جديدة ولا حتى اي حدث جديد حقاً . كانت قبل كل شيء

اثباتاً . القمر بارد (رغم ان آلات تسجيل الزلازل اظهرت هزات يعود البعض منها الى اصطدامات النيازك والبعض الآخر الى تشوّهات في الكوكب عندما تكون المسافة بين الارض والقمر هي الاقصر) . يبدو ان هناك تسرب غازات ولكن ليس نشاطاً بركانياً حقيقياً . عمر القمر هو عمر النظام الشمسي (4,7 مليار سنة) ، ومعظم الصخور يعود تاريخها الى تلك الحقبة ؛ ولكن وُجدت في بحر الهدوء وفي فوهة فرامورو صخور يتراوح عمرها بين3,6و4 مليار سنة : قد يُفَسرّ هذا التفاوت في التاريخ بقصف استثنائي للكوكب من قبل نيازك خلال تلك الحقبة ، قصف قد يكون نتج عنه ذوبان الصخور وتحولها . لا شيء يمنع اذاً من التفكير ان القمر تكوّن في نفس الوقت التي تكونت فيه كل الكواكب وبالطريقة ذاتها اي بتسييل الغازات . في الواقع ، ليس في هذه الأرقام شيء جديد حقاً ، فتحول اليورانيوم إلى رصاص كان يسمح سابقاً بتأريخ عمر الارض وعمر النظام الشمسي (تأريخ اشعاعي وضعه روثر فورد في بداية هذا القرن اتاح نقض الرقم اربعين مليون سنة الذي اقترحه لورد كلفن وهو رقم منخفض ومضحك الى حد يجعل نظرية داروين مستحيلة مما اثار هذا الاخير كثيراً . معظم الصخور القمرية من طبيعة بازالتية .

الملفت للنظر هو وقوع الرحلة نحو القمر خارج المسائل الكبرى التي تطرحها الكوزمولوجيا الحديثة تماماً . لم يكن بوسع تلك التجربة ان تحمل جواباً على النقاشات المتعلقة « بالنماذج الكونية » : كون ثابت ام كون غير ثابت ؟ كون يتمدد ام كون ينقبض ؟ كون متناهي ام لا متناهي ؟ كون يتسع ام كون بلا بداية ؟ تلك الاسئلة تبدو ماورائية . ولكنها اسئلة فيزيائية فلكية ، اذاً فيزيائية حقاً .

بينما كان رصد القمر او المشتري بواسطة منظار غاليلي يسمح بالجزم دون شك بين نظام بطليموس ونظام كوبير نيكوس ، اتاح صاروخ ارمسترونغ التعرف على وجود البيروكسين (سيليكات) والإمينيت (أوكسيد الحديد والتيتان) على القمر . هذه المعلومات الجديدة لم تقلب اية نظرية ؛ فهل تستحق حقاً ان توصف « بأكبر اكتشاف علمي في كل الازمنة » ؟ هل كان ذهاب رواد الفضاء ضرورياً من اجل تحديد وجود هذا السيليكات وأكسيد الحديد ذاك وكذلك وجود فلدسبات ومغنيسيوم ؟ ، قد يبدو سؤال كهذا كفراً ، غير ان العلماء انفسهم هم الذين يطرحونه (لا سيما كارل ساغان الذي حصل عام1973 على الجائزة الدولية للملاحة الفضائية) .

تطرح المسألة لان جمع الصخور ، كان بامكان رجل آلي ان ينجزه بنفس الجودة . لن نقول ان هذه الرحلة الى القمر لم تكن مجدية بل نقول انها جرت قبل اوانها . نعني بقولنا قبل اوانها انها وليدة ظروف طارئة وان تحقيقها المفاجيء منع امكانية نضوج مشروع « قابل للحياة » مكانها ، اي مشروع لم يكن ليتوقف عند مسودة بحث بسيطة بعد التوظيفات الباهظة الضرورية لرحلة الى القمر . بعد بضع رحلات اوقف برنامج ابولو ، وقد يمكننا القول انه أجهض . تصوروا ان لا يأتي هرنان كورتيس بعد كريستوبال كولون . لا ارمسترونغ ولا الدرين هما عالمين ، فتنشئتهما تنشئة عسكرية ومعلوماتهما في الجيولوجيا وعلم الفلك بدائية ؛ فهما اختيرا بين عسكريين كثر لرباطة الجأش التي يتمتعان بها ؛ رباطة الجأش مفهوم نفساني غامض . مفهوم ربما كان يعني في حالتهما ، ان رؤية الافلاك اللامتناهية لم تكن تخيفهما . لتحاشي الحادث ، كان لا بد من رجال بلا احساس ، قادرين على

الاطاعة دون مناقشة اي امر ، رجال آليين يقودهم الراديو كما يوجه الآلات . كان التدريب طويلاً بحيث اعطى لهؤلاء الرجال مظاهر آلية . ان الوقت الذي مضى قبل تكييف هؤلاء الرجال يفوق الوقت الذي يستغرقه صنع الرجال الآليين الذين كان بامكانهم جمع حصًى مثلهم ، عشوائياً . فقد تم هكذا تقدم في فن تحويل الانسان الى انسان آلي مما اكسب علم النفس ولكن ليس الميكانيك ولا الالكترونيك .

لكنهم كانوا رجالاً اي رأسمال ثمين . من هنا ، كان على التجربة ان تمتنع عن اية مجازفة . فاصبح الفشل مستحيلاً . كان الثمن غالياً ان لا « يحطم » انسان في العملية . اثناء هذه الرحلة ، كان الموت ممنوعاً بداعي المصلحة العليا .

كان الثمن غالياً لان الانسان يأخذ مكاناً اكبر من الرجل الآلي ، الانسان ينقل امتعة ، الانسان غالٍ ، الانسان يتأثر بالاشعة الكونية والانسان بخلاف المعدن يتحمل تغييرات حرارية صغيرة جداً . فكرة جثة بشرية تدور ازلياً حول الارض لم تكن تطاق : الدفن له معنى اهوس .

كان الصاروخ يحمل بشراً : مما يحد وزن الادوات التي يمكن نقلها ؛ ومما يحد وقت البحث ؛ ومما يحد خاصةً اختيار مكان الهبوط . ولما كان على متنه بشر ، ثم تحاشي الجبال والمناطق الوعرة ، غير ان هذه المناطق كانت تبدو الاكثر منفعة للبحث .

لقد حدّ ، اذن ، وجود الانسان على متن العربة من فائدة العملية ؛ وكان لها ، اضافة الى ذلك تأثير سيء على التحليل ؛ واصبح الانسان بوجوده برهاناً ـ الجوهر او العلة ـ لكثير من القياسات الفاسدة . لأن ذاك

الانسان كان اميركياً ولأنه كان يُدعى ارمسترونغ ، كان الاستنتاج ان النظام الاميركي متفوق على أي نظام اخر . استنتاج منطقي ظاهرياً . ومن هناكان يستنتج تفوق سيارات الجنرال موتورز والكوكاكولا والمنافسة الحرة . من يصعد اعلى يكسب ؛ على هذا الاساس ، تمتعت مصر الفراعنة التي بنت الاهرام بنظام متفوق على نظام يونان بيركليس الذي بنى البارتينون . هذا حقاً منطق لاافلاطوني .

يصبح القياس رأياً ويصبح سفسطة مقنِّعة . هكذا نمر من الحد الاكبر الى الاستنتاج عبر حدٍ اصغر هو الانسان كما في ايام سقراط . ولأن الانسان كان على سطح القمر ، فالانسان كائن متفوق . اي انسان ؟ ارمسترونغ ؟ ام العسكري الاميركي ؟ ام الرئيس نيكسون ؟ هذه الصورة العامة للانسان وهو يغزو القمر كانت تمحي كل الفوارق بشكل مجرد .

ان العلم هو الذي عانى خاصةً ، من هذه التحليلات التسلطية . كان يُحكى عنه وكأنه إله وكيان غامض وملك المختبرات ؛ جعلوا منه جوهراً : « ربح العلم رهانه . » لم تكن الرحلة الى القمر اذن مناسبة لدرس في المنطق . ثمة اخلاق جديدة كانت تبرز : تقاس نوعية نظام سياسي بقدرة صواريخه .

كانت تلك الرحلة الى القمر مزيجاً من الانجازات الرياضي منها والتقني والعلمي . وبما ان هذا الخليط بقي صلباً ، يمكننا التساؤل ان لم يَحصِّل العلم في هذه المغامرة طابعاً كان يتظاهر بأنه ليس له ، الطابع السياسي .

كان القمر غزواً رمزياً ؛ يكفي ان نضع فيه رهان غزو اقليمي :

لقد زُرع علم على قمر مهجور وتم غزو الفضاء . ثمة جهاز علمي عظيم ، ساذج في عظمته ، عظمة القميص المفتوح على عنق متعرق في هيوستون ، اعطى صورة توتر عصبي يدفع الى التفكير بشيء من الذكاء . ولكن ذلك كان الى حد كبير مشهداً متلفزاً كئيباً بما فيه الكفاية . لدى عودة رواد الفضاء ، اقيم احتفال جرثومي ؛ وُضعت الحجارة في الحجر خوفاً من ان تعدي العلماء . في ازمنة اخرى ، عندما كان المطلوب غزو الفضاء في الغرب ، كانوا يوزعون على الهنود الحمر اغطية موبوءة بالجدري . لقد أوصلوا صورة التجربة العلمية بعيداً ، كانوا يتخيلون ادوات علمية ثمينة جداً بغية رصد اشارات حياتية قادمة من عالم كانوا يعرفون انه ميت . ثمة نضارة مسلكية كانت تلعب دور صرامة ما يسمّى انضباطاً علمياً . لقد أُعجبنا برقص رمزي منظم . يطرح القرار الذي اتخذه الرئيس كنيدي بارسال بشر الى القمر ، وقد اتخذ هذا القرار للتعويض عن فشل الانزال في خليج الخنازير في كوبا ، وكذلك القرار المفاجيء بايقاف برنامج ابولو في 1972 ـ في عهد رئاسة نيكسون ـ تطرح هذه القرارات قضية العلاقات التي تقوم بين الدول الحديثة والبحث العلمي . يستتبع تحليل هذه القضية التي اظهرتها الرحلة الى القمر على افضل وجه ، امتلاك معلومات حول الآليات التي تحكم تدخل الدولة واجهزتها من جيش واجهزة تجسس في ميدان العلم ولنقل حتى في ميدان المعرفة . بالنسبة للدولة السوفياتية ، نفترض انها تتدخل بشكل تام ، اي دون ان تترك للعلماء اي اختيار في اقرار اغراض بحثهم ؛ نفترض ذلك لأننا لا نعرف عنها شيئاً . السر يعبر بذاته عن ريبة غريبة تجاه الحقيقة . لا نرى سوى النتائج دون الظروف التي جعلت هذه النتيجة محتملة . هذه سخرية من البحث عن الحقيقة ،

بشكل من الاشكال . مما يجعل اجمل الانجازات تفقد قيمتها العلمية . كيف يمكننا ان نسمي علماً عمل يحصل دون لغة ولا برهان ولا تفسير ولا يقدم لنا سوى استنتاجاته التي علينا ان نقبلها او ان نرفضها .

مجدداً ، وحدها الدولة الاميركية يمكنها ان تكون موضوعاً للتعليل ، لأن من يريد ان يتكبد مشقة تحليل التقارير المنشورة بلا حياء ، يجد ان حسابات هذه الامة واضحة بما يكفي . غير ان قراءة كهذه مقلقة .

تهدف السياسة الاميركية في ميدان الملاحة الجوية ، في الوقت ذاته الى المحافظة على حرية المبادرة والمنافسة والخيارات التي تقررها دولة قلقة غالباً على تفوقها العالمي ، وعلى تفوقها العسكري . وبغية التوفيق بين حاجات دولة عظمى ومبادىء « الليبرالية الاقتصادية » كان الحل الذي تم العثور عليه ، حل « دولة » تكون « الزبون الافضل للشركات الكبرى » . الدولة زبون . ليس بوسعها ، من اجل المحافظة على مبادىء حرية المبادرة ، إلا ان تكون زبوناً ؛ لكن هذا الزبون ملك . قد يسعنا التحدث عن ملكية جديدة مبنية على مفهوم العمالة . على الدولة الاميركية ، في الوقت ذاته ، تقديم طلبات الى الشركات الخاصة والمساعدة في جعل توظيفات هذه الشركات اكبر مردوداً والسهر على ان تلعب هذه الشركات لعبة الليبرالية والمنافسة . ان قيوداً كهذه متناقضة الى درجة ان النزعة ، في ميدان البحث العلمي ، هي باتجاه تقوية سلطة الدولة : هي التي ستتخذ القرار حول الحرية الممنوحة للشركات . العلماء ليسوا سوى موظفين في هذا الشركات ، في اغلب الاحيان ، وهكذا نفهم بدون عناء ان الدولة هي التي تتخذ القرار حول حرية البحث . ان الرساميل الهائلة الموظفة في الولايات المتحدة في البحث

الفضائي هي رساميل غير منتجة ، رساميل قيمتها مخفضة . ترميها الدولة في السوق بشكل قرض الى هذه الشركة او تلك تستخدم تلك الرساميل لانعاش الاقتصاد عندما تسوء مسيرته . المقصود هو تقديم سوق يتكوّن من اموال حكومية ؛ كان ذلك عملاً ثورياً ايام كينز وروزفلت ؛ ولكنه يبدو اليوم ، وكأنه طباً مغالياً لنظام بالغ المرض ، تُقَرَّر هذه الرساميل بشكل ملحق للموازنة ؛ من هنا فان مصدر المال في البحث قد ينضب يوم لا تعود الرساميل العامة ضرورية للشركات الخاصة : هذا ما حصل عام1972 .

بالاضافة الى وظيفته بتسيير الاقتصاد الحر ، كان هدف المشروع الفضائي الاميركي بالاساس تدمير الاقتصاد السوفياتي . كانت الفكرة ان يُجبَر السوفيات على توظيف اموالٍ باهظة في برامج البحث ، بحيث يجدون انفسهم بعدها مفلسين ؛ واستناداً الى الخبراء الاميركيين ، قد يثير هذا الافلاس تمرد الشعب الروسي (فكرة يمكن ان تُنسب الى السيناتور ماك نمارا) .

في الوقت الذي كان مفترضاً فيه بالبحث الفضائي الاميركي ان يفقر الشعب الروسي ، كان له وظيفة تجسسية مباشرة : كان يتيح تصوير كل شيء فوتوغرافياً وكان رداً على النزعة السرية الذهانية الهذيانية الى حد ما للدولة السوفياتية . كانوا يرون من فوق ما ترغب في اخفائه . لقد رفعت رؤية العالم بالصورة الفوتوغرافية مزايدات لعبة البوكر التي كان رهانها بشر .

لم يكن الموضوع الستراتيجي والبوليسي هو السبب الوحيد في الحالة الاميركية . كان ثمة طريقة اعتيادية ايضاً لمنح الصناعات ما

يُسمّى « نشار البحث » . فالدراسات حول الآليات الالكترونية لصاروخ ما يمكن تطبيقها على صنع برنامج غسالة أو برنامج جهاز تلفزيون .

نادراً ما يكون تدخل الدولة مباشراً في الولايات المتحدة . ثمة منظمات متعددة تعمل بين رجال العلم والسلطة المقسمة غالباً في النظام الفدرالي . تستخدم هذه المنظمات التي هي منظمات خيرية احياناً والتي تولد احياناً ايضاً من هبة ناتجة عن ميراث ، كعربون . وتخفي تحت مظهرها المجاني توظيفات رأسمالية منفعية . ليست جميع هذه المنظمات رعائية ، للنازا (N. A. S. A) الادارة الوطنية للملاحة الجوية والفضائية) التي أنشئت عام 1958 ، تنظيم مدني بالطبع ، غير ان وزارة الدفاع تمنعها ثلث اعتماداتها . ثمة ضباط كثيرون يعملون في النازا . ان قاعدة الاطلاق في كاب كنيدي يديرها الجيش الى حد كبير . انشأ الرئيس كنيدي النازا في ظرف معين : كان الغرض منها الهبوط على القمر ، وقد تدوم ما تدومه قاعدة صواريخ تطلق باتجاه القمر . كان ذلك خرافة الى حد ما رغم ان الحروف الاول من اسمها اصبحت مشهورة . لقد صرفت النازا ثلاثين مليار دولار لتحقيق المشروع الذي اقره كَنيدي (ما يقارب الاربعمئة مليون في 1959 وستة مليارات في 1966 ، وانخفضت الاعتمادات سنة 1974 ووصلت الى ثلاثة مليارات) .

تُوزَّع الاعتمادات الممنوحة للنازا على الصناعة الخاصة بواسطة التلزيم . من بين الشركات التي تستفيد من هذه الاعتمادات ، نذكر شركة لوكهيد لصناعة الطائرات وشركة هيوز (Hughes) المماثلة والجنرال دينامكس والماك دونيل دوغلاس والجنرال الكتريك والأي

بي ام(I. B. M) الخ .

قد يكون المرء مخطئاً في تفكيره عن تنظيم البحث في الولايات المتحدة اذا اعتقد ان الاعتمادات تذهب دوماً مباشرة الى الشركات الكبرى ؛ فالمنهج اكثر براعة او اكثر تفاهة ، يذهب المال غالباً الى جامعات حيث يجلس اعضاء في مجلس ادارة شركات الملاحة الجوية والالكترونيك الكبرى ، وحتى رئيسها احياناً . بهذه الطريقة ، يمنح المال للجامعة وليس للشركة ؛ ولكن النتيجة واحدة .

احياناً يجلس في مجلس جامعة ما ضباط كبار من الجيش الاميركي . يجبر قانون المنافسة الحرة جامعة ما على استباق طلبات وزارة الدفاع ، فتُطرح افكار للحصول على اعتمادات . وغالباً ما يجهل العالم ان هدف بحثه قد يكون له « اسقاطات » عسكرية . هل هناك اكثر حيادية من دراسة لغة الاسماك ؟ ولكن هذا النوع من الدراسات يسمح بتحسين نظام التوجيه او التشويش في الغواصة . وهل ثمة شيء اكثر براءة من دراسة تصرف القبائل المتوحشة في غابات الامازون والتايلاند ؟ انما هذا النوع من الابحاث شجعته وزارة الدفاع الاميركية اثناء الحرب في جنوب شرق آسيا . ان العالم لا يعرف من يدفع . وكي يتم خداعه بشكل افضل ، توزع الاعتمادات وكالات من العسير معرفة ما هي ؛ مثلاً البـ P. S. A (لجنة الرئيس للمشورة العلمية)(Président Science advisory Committee) المؤسسة سنة 1957 ؛ والـ F. C. S. T. (اللجنة الفدرالية للعلم والتكنولوجيا) التي انشأت سنة 1950 الـ N. S. F (المؤسسة العلمية الوطنية) التي لعبت دور الوسيط مع الجامعات . كل شيء يجري وكأن اتفاقاً غير مكتوب يسمح لرجل العلم ان يؤمن بلا ندم بطهارة بحثه . على كل حال ، السرّ لا يجدي لأن احد

استقصاءات الرأي الاخيرة اثبت ان اكثرية العلماء الاميركيين لا يشمئزون قطعاً من العمل للجيش .

تستفيد الجامعات بشكل متفاوت من هبات الدولة السخية ، ثمة مختبرات مُفَضَّلة بصراحة كبيرة ، مثلاً «مختبر لورنس للاشعاع» (التابع لجامعة كاليفورنيا) او « مختبر لنكولن » (التابع لـ M.I.T) . ويشارك بعض العلماء دون اي خجل في برنامج عسكري ؛ تلك هي حالة مشروع « جازون » او مشروع « كاميلوت » ؛ هذه المرة لعبت الـ I.D.A (مؤسسة تحاليل الدفاع) دور الوسيط .

لا احد يفكر بانتقاد العلماء الذين يشاركون في عمل ميت ، نجد تفسير ذلك في الامل الذي يضعه الذين يتعلمون قليلاً في المعرفة ولادتهم لا تمنحهم سوى القليل من فرص التعلم - ولكن اليس استغلالاً لثقتهم ان نطرح عليهم القمر ؟

المصادر والمراجع

- Atlas d'Astronomie, Stock
- L'affaire Galilée, présentée par E. NAMER, coll. Archives
- CLARKE (A) : l'homme et l'espace, Life.
- GALIANE (I. de) : A la conquête de l'espace , larousse.
- YASTROW (R) : Des astres , de la vie et des hommes, Seuil
- MENAHEM (G.) : la science et le militaire, Seuil.
- MICHEL (J.) Dora, Y. - C. Lattès.
- STERNFALD (A.) : le vol dans l'espace cosmique, les Editeurs Français Réunis.

فهرست

